فقه التديّن بجزئيات الدّين في الخطاب النبوي
رؤية منهجيّة دعويّة تربويّة

د. عدنان مصطفى خطاطبة
قسم الدراسات الإسلامية ـ كلية الشريعة
جامعة اليرموك ـ إربد ـ الأردن

ملخص البحث :

هدفت الدراسة إلى بحث موضوع فقه التدين المتعلق بمحور الجزئيات الدينية في الخطاب النبوي، في إطار رؤية منهجية دعوية تربوية، تسهم في تقديم معالجة علمية واقعية، تعمل على تسديد عملية التدين والدعوة إليها. وقد جاءت هذه الدراسة في خمسة مباحث: الأول: تحليل مفاهيمي، والثاني: أطر التدين بالجزئيات وموجهاته، والثالث: دوافع التدين بالجزئيات ومقاصده، والرابع: فقه الدعوة إلى التدين بالجزئيات وتعليمها، والخامس: ثمرات التدين بالجزئيات وأبعاده التربوية. وكان أبرز ما توصلت إليه الدراسة: التديّن بالجزئيات له ميادينه المتنوعة ومستوياته المعرفية والتطبيقية والدعوية والتعليمية. وله أطره وموجّهاته، ودوافعه ومقاصده. وترتسم اتجاهات التديّن بالجزئيات في الخطاب الدعوي المعاصر بأربعةٍ: اتجاه الإهمال والترك، التهوين والتسطيح، الإفراط والإغراق، التوازن والاعتدال. وتشترك مجموعة من العوامل ذات الأثر السلبي في عملية التديّن بالجزئيات. وتعمل منظومة من القواعد في إنجاح عملية التديّن بالجزئيات: دعوةً وتعليماً. وينطوي التديّن بالجزئيات على مضامين تربوية وأبعاد قيمية مهمّة.

مقدّمة الدراسة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعّهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنّ الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله، لغاية أصيلة لا يمكن أنْ تتبدّل ، تتمثل في أنْ يُعبد الله تعالى وحده، وهذه الغاية محبوبة ومرادة لله تعالى، تضافرت لأجل تحقيقها مكونات خطاب الوحي، وآليات فهمه وحمله وتبليغه، وبذلت في سبيلها جهود فكرية وعلمية ومكتبية ومنبرية واسعة ومتنوعة، سعت لجعل لهذه الغاية واقعاً عملياً، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه "التديّن". فهو تطبيق الدين في الحياة. ولكن هذا التطبيق حتى يخرج بصورةٍ منسجمة مع مراد الشارع أو قريبة منه، لابدَّ أن يخضع لعملية إنتاج تمرّ عناصرها من مقدّمات وتفاعلات بخطوات متسلسلة صحيحة، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه "فقه التديّن". والذي يمكن فهمه علمياً على أنه تفعيل خطاب الوحي في واقع النفس والحياة. وهذا التفعيل يتطلب ثلاثية متماسكة الأضلاع: فقه في خطاب الوحي، وفقه في الواقع النفسي والحياتي، وفقه في التنفيذ والإخراج. وأيّ خلل يعتور ضلعاً من هذه الثلاثية، سيقود إلى تدّين إمّا مأزوم وإمّا منقوص. والقراءة للفكر الإسلامي ومراحله وللخطاب الإسلامي وتنوعاته تشير إلى تذبذب حالة التوازن بين هذه الثلاثية في فقه التديّن، واختلاف منسوبها ليرتفع تارة وينقص أخرى، وبفعل العوامل الذاتيّة والغريبة المختلفة وقع تأثير سلبي على صورة التديّن الشمولي أصابت أطرافاً منها عدّة، كان من بينها: "التديّن بالجزئيات". حيث إنه من المعلوم ضرورة في ديننا أن هناك كلياتٍ وأصولاً وهناك جزئيات وفروعا، جاءت طبيعة الخطاب الشرعي بهما معاً وبصورة من التوازن والترتيب والبيان جعلت فقه التديّن المتعلق بهما يتمّ بشكل واقعي يحقق غايته الأصيلة دون إحداث خلل أو زللٍ في الصورة الشمولية للتديّن. ولكن مع تقادم الزمان وتنوع مؤثرات المكان واختلاف طبيعة الأنفس وأولويات الإصلاح وعقلية الإنسان المتعامل مع

خطاب الوحي، حدث خلل في معادلة التديّن بين الكليات والجزئيات، قادت في كثيرٍ من المواطن إلى نشوب معارك افتراضية يتصارع فيها طرفا الكلّيات والجزئيات: مؤيدين أو معارضين، أو حقيقية ولكنها أديرت بغير موجّهات، الأمر الذي أدّى إما إلى تفريغ التدين من الجزئيات أو تضخيم أمر التديّن بالجزئيات، وما يحتفّ بكل ذلك من استنزاف للجهود وهدر للطاقات وإيغار للصدور وتمترس حول الرأي، ورفض للرأي الآخر، وانزلاقات في الخطاب الدعوي، ينتج عنه غياب القراءة السليمة المحايدة لطرفي المعادلة، والتي تصدر عن التعامل مع الخطاب الشرعي بطريقة منهجية، تقود إلى تحقيق مقاربة تسهم في البناء لا الهدم، والاجتماع لا الفرقة، والتديّن المتزن لا المخل، بما يحقق الغاية الأصيلة التي ابتدأ الكلام عليها، وهذه الدراسة من تلك المحاولات البحثية التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف، وذلك من خلال إجابتها على الأسئلة الآتية:

- ما دلالة فقه التديّن؟ وما دلالة الجزئيات؟ وما مجالاتها ومستوياتها؟
- ما أطر التديّن بالجزئيات؟ وما موجهاته ؟
- ما دوافع التديّن بالجزئيات؟ وما مقاصده ؟
- ما قواعد التديّن بالجزئيات؟ وما ضوابط تعليمها ؟
- ما الأبعاد التربوية والقيمية في التديّن بالجزئيات ؟

وحدود الدراسة تركز على تحليل الخطاب الشرعي (النبوي) المتعلق بموضوع التديّن بالجزئيات لكونه الأكثر اتصالاً بالجانب التطبيقي والانطلاقة منه للبناء ولتوجيه الواقع، دون التدخل بالمحور الفقهي واختلافاته وترجيحاته، فليس هذا محلّه.

واقتصرت الدراسة على التعامل مع أحاديث الصحيحين في سبيل تحقيق أهدافها. ومنهجية الباحث في دراسته تقوم على استخدام المنهج التحليلي والاستنباطي. وفئتها الرئيسة أحاديث الصحيحين. وقد راعى الباحث جملة من الأمور التي توضح بعض جوانب المنهجية العملية في مباحث الدراسة، منها:

- قام الباحث بقراءة أكثر من عشرة آلاف من الأحاديث النبوية الصحيحة في سبيل رصد مجالات الجزئيات وتحليل خطابها بما يخدم مسار الدراسة بمباحثها المختلفة.

- اكتفى الباحث بإيراد المجالات والإشارة إلى إطار الجزئيات العام، ولم يورد الأدلة الشرعية وتفاصيل الأمثلة لتجنب الإطالة والإثقال على القارئ نظراً لكثرتها. ومن شاء الوقوف على الأدلة الشرعية في مجالات الجزئيات فيمكنه ذلك بمراجعة الصحيحين، وخاصة كتاب الصلاة وكتاب الآداب والأخلاق والسلام والبيوع وغيرها.

- بما أنّ هذه الدراسة ليست مخصصة في شؤون الجماعات الإسلامية، وليس من أهدافها عرض أفكارها وتقويمها والمقارنة بينها، لذلك رأى الباحث تماشياً مع طبيعة هذه الدراسة ألاّ يورد أسماء بعينها، بل يكتفي باستخلاص الاتجاهات العامة في ذلك وفقاً لاجتهاده ورؤيته وحسب.

- لا شك أنّ هذه الدراسة وفي هذا المبحث تحديداً لا تعنى بدراسة وتحليل مفسّرات ومبررات كلّ اتجاه في النظر إلى جزئيات الدين، فهذا له مساره الخاص في دراسة مستقلة تنشأ لذلك لمن أراد البحث، ولكن مقصود الباحث من التعريج على هذه الاتجاهات لملاحظتها والتنبه لها والإفادة من مواقفها ومقارنتها في عملية الدعوة العلمية إلى التديّن بالجزئيات في حياة الناس وواقعهم.

- اعتمد الباحث منهجية علمية موحدة في التوثيق في الهوامش بذكر عنوان الكتاب والصفحة وفي تخريج الحديث بذكر المصدر والكتاب أو الباب للحديث ورقم الحديث، وفي المراجع بذكر الاسم الأخير فالأول فاسم المرجع وما يتوفر من معلومات عنه وقد جاءت الدراسة في خمسة مباحث :

الأول: مدخل مفاهيمي.

المبحث الثاني: أطر التديّن بالجزئيات وموجّهاته.

والمبحث الثالث: دوافع التديّن بالجزئيات ومقاصده.

والمبحث الرابع: فقه الدعوة الى التديّن بالجزئيات وتعليمها .

والمبحث الخامس: ثمرات التديّن بالجزئيات وأبعاده التربوية .

والنتائج والتوصيات .

هذا جهد الباحث، وإنّه ليسأل الله التوفيق والقبول، وإنه ليرجو من كل قارئ كريم النصح والتوجيه، رجاء تسديد مقولة هذا البحث ومقصده في بناء فقه تديّن يحقّق مرضاة الخالق سبحانه عنه، ويبشر بإقبال الخلق عليه.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات

* * *

المبحث الأول: مدخل مفاهيمي: فقه التديّن: الجزئيات: دلالتها وميادينها ومستوياتها ومصادرها:

دلالة فقه التديّن، والجزئيات:

لابد من مدخل علمي يوضح دلالة عنوان هذه الدراسة بمال يسهم باستيعاب معالجاتها البحثية ويتناسق معها.وهذا المدخل الذي يوضح دلالات عنوان الدراسة سيتم تحديده وفقاً لرؤية الباحث ومقصوده نظراً لطبيعة هذه الدراسة ومركبات عنوانها، والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين: الأول: فقه التديّن، والثاني: الجزئيات.

وبحسب رؤية الباحث، فإنّ المراد بفقه التديّن: تطبيق الدين والتعبد به، المبني على معرفةٍ وفهمٍ و وعي. ففقه التديّن يُعنى بتنفيذ الدين منهجيا والتعبّد به لله تعالى على أسس من المعرفة الشرعية لأمور الدين والفهم العلمي لها والإدراك لحيثيات تطبيقها والوعي بمقاصدها ومراميها. ففقه التديّن تدور رحاه على التفعيل المنهجي لخطاب الوحي.

فالتديّن يتعلق بتطبيق أمور الدين التي جاءت في الكتاب والسنة، ولّما كانت أمور الدين واسعة وشاملة ومتنوعة، فإنها وقعت في مراتب تمّ تصنيفها باتجاهات متعددة؛ فاتجاه يصنفها إلى عليا في مقابل دنيا كما في حديث شعب الإيمان المعروف.وليس المراد بالدنيا هنا السفلى، بل هي كما جاء في الحديث مقابلة لأعلاها (أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق)، وقد علق على ذلك ابن حجر بقوله: "وفي هذا إشارة إلى أنّ مراتبها متفاوتة".[1] واتجاه يصنفها إلى كلّيات في مقابل جزئيات كما هو في مؤلفات الشاطبي[2]، واتجاه يصنفها إلى أصول في مقابل فروع كما هو عند المتكلمين[3]، واتجاه يصنفها إلى ثوابت في مقابل متغيّرات كما هو عند الصاوي[4]،

---

(١) فتح الباري، جـ١، ص٧٧.

(٢) راجع: الاعتصام، جـ١، ص١٨١، ٣٣٠، ٤١٣، ٤٣٩، ٥٠٧.

(٣) وهذا كثير ومعروف عند أهل العلم قديماً وحديثاً.

(٤) راجع: الثوابت والمتغيرات، ص٨-٤٠، والثابت والمتغير في فكر الشاطبي، ص١٠-٥٥ .

وكلها محاولات علمية في سبيل تيسير فهم الدين وتسهيل تطبيقه وإحكام التعامل مع مختلف جوانبه.

ولا شك أنّ من الواضحات في طبيعة الدين وتركيبته أنّ منه أموراً توصف بأنها من المتقدّمات في منظومة الدين وأن أخرى تليها مرتبةً. فأصول الإيمان تتقدّم على أصول العبادات، وأصول الأخلاق تتقدّم على أصول المعاملات المادية، وأصول كلّ من الإيمان والعبادات والأخلاق والمعاملات تتقدّم على فروع وجزئيات كلّ منها. ويبقى حديث شعب الإيمان[1] وغيره كثير من الأدلة شاهدة على هذه الطبيعة للدين، ومؤكدة من جهة أخرى أن ثمّة أموراً دينية جاء بها الوحي يمكن أن يطلق عليها جزئيات إذا ما قورنت بأمور دينية كلّية جاء بها الوحي كذلك، كما هو ظاهر في حديث شعب الإيمان بورود لفظين من ألفاظ التصنيف والترتيب وهما "أعلاها" و"أدناها"، حيث تشير الأخيرة إلى حقل "الجزئيات".

وهذا الاتجاه في تقرير مفهوم الجزئيات هو ما يتسق مع طبيعة هذه الدراسة التي يدور رحاها على تفعيل التعبّد بأمور الدين التي لا ترقى لأن توصف بأنها من الأصول أو الكليات الدينية، والواجبات الأساسية المتفق عليها، لتأخذ بذلك مساحات كبيرة من دائرة المستحبات والتوجيهات والإرشادات والنصائح وقطاعات مختلفة من دوائر الدين وعلومه المتنوعة، بعيداً عن نزعة الجدل الفقهي والترجيحات المذهبية، إذ مدار الأمر على جملة نصوص الوحي الواضحة والثابتة التي دعت إلى عبودية الله تعالى واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم في مستوى من الخطاب الشرعي دون مستوى الخطاب الشرعي في كليات العقيدة والشريعة والشرائع. وفيما سيأتي من حديث عن مجالات الجزئيات مزيد إيضاح تفصيلي لأمثلتها وطبيعتها.

---

(١) ونص الحديث هو: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ح رقم(٥٨).

ميادين "الجزئيات" ومستوياتها ومصادرها:

بتتبع خطاب الشرع المتعلق بالجرئيات الدينية، تبين أنها تشكل تنوعاً يتناسب مع الخاصية الشمولية لهذا الدين بحيث تغطي مجالات متعددة دون أن تنحصر بمجال واحد، وهو مجال العبادات والأذكار كما قد يتبادر إلى الذهن من مجرد طرح هذا المصطلح "الجزئيات"، فمن المجالات التي برزت فيها "الجزئيات"مجال الشعائر التعبدية الأساسية والتي تتمثل في سنن الصلاة وسنن الزكاة وسنن الحج والأذكار المطلقة والأذكار المقيّدة والأدعية، وجملة كبيرة من الأخلاق وآداب المعاملات والحياة الأسرية والمجتمعية وتربية الذات والعلم والعشرة وما يلحق بها. وكلها مجالات تتوزع على باطن الإنسان وظاهرة، فللقلب حظّ منها وللسان حظه وللجوارح حظها. وإذا ما أردنا أن نبرز مجالات الجزئيات علميا في ميادين بارزة ، فإننا نضعها ضمن الميادين الآتية:

- ميدان تزكية الذات وتربية الجماعة.
- ميدان العلم والدعوة.
- ميدان الاتصال الإنساني.
- ميدان الشعائر التعبدية.
- ميدان التعاملات المادية.
- ميدان باطن الإنسان وظاهرة.
- ميدان الحياة الدنيا والحياة الأخري.
- ميدان العمل الإنساني والأخلاقي.

إنّ هذا الثراء في ميادين " الجزئيات" وفقاً لخطاب الشرع، لتشير ابتداء إلى الخطوة الأساسية الأولى في إدراك أهمية فقه التديّن بالجزئيات، والتي تتمثل في إدراك هذا التنوع في هذه الميادين والوعي به ومعرفة أبعاده .

وكما أنّ ميادين "الجزئيات" في خطاب الشرع تكشف عن معطيات مهمة في سبيل

إحسان التعامل مع فقه التدين المتصل بها، فإنّ تحديد مستوياتها يؤدي كذلك خطوة مهمة في ذات الاتجاه، ولذا يمكن تحديد هذه مستويات هذه الجزئيات بالمستويات البارزة الآتية:

- مستوى المعرفة النظرية.
- مستوى الفهم العلمي.
- مستوى التطبيق الذاتي.
- مستوى الدعوة.
- مستوى التعليم.

وهناك أيضاً مستويان من حيث صفة ورود الجزئيات في الخطاب الشرعي: الأول: أن تأتي مستقلّة، والثاني: أن تأتي تابعة ضمن سياق.

وأمّا بالنسبة لمصادر الجزئيات، فإن منظور الدراسة إلى المصادر المعتمدة للجزئيات التي تشكل مضموناً في خطاب الشرع وتتوافق مع طبيعة البحث ومقاصده تنحصر في الوحي الإلهي، والمتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الثابتة. مع استصحاب ما هو معلوم في طبيعة خطاب الشرع من كون السنة النبوية الأكثر عناية بجانب جزئيات الدين وتفاصيله ، لذا كان تركيز الدراسة عليها بشكل أكبر(ضمن الخطاب النبوي). ولا تشكل كتب الفروع الفقهية التي تزخر بالمئات من الفتاوى الفقهية في العبادات المختلفة مصدراً من مصادر هذه الدراسة لأن هذه الدراسة لا تعنى ببحث الفرعيات الفقهية المختلف بها وترجيحاتها وما يتصل بها من المسائل التي مجالها الدراسات الفقهية والأصولية.

* * *

المبحث الثاني: أطر التديّن بالجزئيات وموجّهاته:

إنّ القراءة المتعمقة "للجزئيات" في خطاب الشرع، تقدّم صورة أكثر وضوحاً لطبيعة هذه الجزئيات في سياقاتها وتكشف أنها وقعت ضمن أطر كلّية لابدّ من الوعي بها وموجهات لابدّ من مراعاتها في مراحل التديّن بالجزئيات. وفيما يأتي عرض لما تمكن الباحث من استخلاصه في هذين المحورين.

أولاً: أطر التديّن بالجزئيات:

إنّ من أهم خصائص هذا التدين أنّه نظام، وعليه فإنّ خطاب الشرع في إيصال رسالة هذا الدين إلى الناس جاء محاطاً بأطرٍ كلّية تحوي مضامين رسالته المتنوعة وتشكل لها أرضية ثابتة تحفظ لها طبيعتها وتسهم في فهمها وتطبيقها وتحقيق غاياتها. وفيما يتعلق بالجزئيات فثمة أطر إسلامية لابد أن تقرأ هذه الجزئيات من خلالها، ولابد أن تستصحب في وعي الناظر فيها والساعي إلى تطبيقها أو تعليمها؛ ومن هذه الأطر:

١- أن الجزئيات "مطلب إلهي وهدي نبوي". فالجزئيات الدينية الواردة في خطاب الشرع، هي جزء من المطلب الإلهي الكبير الذي أراده الله من عباده حينما خاطبهم بالوحي، ذلك أنها "وحي" وبالتالي فهي مراد لله تعالى ومحبوب من محبوباته. وقد أشار الحديث القدسي إلى ذلك، فيما يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربّه عز وجل: (وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه)[1]. ومن الجزئيات: النوافل وهي كثيرة، وفي الحديث إشارة واضحة إلى أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل الجزئيات ضمن إطار كبير ودائرة واسعة تتمثل في النظر إليها على أنها من الأمور المرادة لله تعالى والمحبوبة له سبحانه. وكذلك الأمر بالنسبة لموقع الجزئيات في السنة النبوية فإنها تقع ضمن إطار أساسي يتمثل في كونها هديا نبويا، إما قولي صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإما فعلي مارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو إطار يضفي على

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح رقم (٦٥٠٢)

هذه الجزئيات كسابقه (مطلب إلهي) أبعاداً رحبة ونظرات سامية حينما يتصورها أو يمارسها في كونه يتعامل مع أمر هو مراد لله من جهه وهدي لرسوله صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، حينما يمارس المسلم جزئية من جزئيات الدين التي تتعلق بعمل إنساني، مثل العطف على حيوان عابر لا يدخل في ممتلكاته الخاصة كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (أن رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفّه، فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له)[1].ثمّ يكتشف أو يكشف له خطاب الشرع أن مثل هذا العطف الموقف الجزئي الذي لم يكلفه جهداً ولم يأخذ منه تكلفة، قد كان محط نظر الله تعالى وعنايته، فإنّ هذا حتماً سيغير منظوره ومنظور آخرين إلى فقه التدين بالجزئيات لتنتقل إلى دائرة كونها مرادة لله تعالى. وأيضاً حينما يتدين بأمر جزئي جاءت به السنة، مثل المسح الحاني على الطفولة البرئية بكلمات شرعية رجاء سلامة أطفاله ودفع الآذى عنهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي يقول فيه: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين، ويقول: إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق..."، فإنما هو يمارس هديا نبوياً فعله رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو بلا شك مراد لله تعالى، وبل وكما في هذا المثال تحديداً، يظهر هذا المنظور بصورته الممتدة وبإطاره الواسع ليصل هدي الأنبياء السابقين من أولي العزم (إبراهيم عليه السلام) بهدي خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم مؤكداً وموثقاً ذلك الإطار المهم في النظر إلى الجزئيات، إطار المطلب الإلهي والهدي النبوي، ومعطياً بذلك قيمة عليا لفعل المسلم وإن كان محدوداً.

٢- نسقيّة الجزئيات في خطاب الشرع، فالنظر إلى التديّن بالجزئيات وفقه التعامل معها وتصوّرها، يجب أنْ يكون في إطار نسقي يوضح ارتباطات هذه الجزئيات وتكاملاتها مع كلّيات الدين وواجباته ومقاصده وأن تقرأ في سياقها الشمولي الذي

(١) المصدر السابق، كتاب الوضوء، ح رقم (١٧١).

طرحت من خلاله. وهذا من شأنه أنت يقدّم صورة أكثر وضوحاً وواقعيّة لطبيعة هذه الجزئيات واتساقها مع غيرها من أمور الدين. فلا توجد جزئية من جزئيات الدين إلا وتقع في موقع محدد لها تشكل حلقة من نظام مترابط متكامل متتام يشد بعضه بعضا ويحفظ ذاته الكلية والجزئية من الفرط والتحلل. وهذه النسقية تظهر في مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام، ١٦٢]، " إنه التجرد الكامل لله، بكل خالجة في القلب وبكل حركة في الحياة، بالصلاة والاعتكاف، وبالمحيا والممات، بالشعائر التعبدية، وبالحياة الواقعية، بالممات وبما وراءه"[(١)]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة، ٢٠٨]، قال مجاهد: " أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر"[(٢)] وقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق" [(٣)]ففي هذا الحديث " بيان أنّ الإيمان الشرعي اسم لمعنى ذي شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبه، وتستوفي جملة أجزائه" [(٤)].وقد أدخل ابن رجب العديد من جزئيات الدين في مسمى الإيمان وفي مسمى الإسلام[(٥)] بما يظهر نسقية الجزئيات مع مفاهيم الدين وكلياته.

وتظهر تطبيقات ذلك جلية في طبيعة خطاب الشارع المتعلق بالجزئيات حيث يربطها بأطر عقدية وإيمانية وإسلامية وبإطار العبودية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم حينما سئل: أي الإسلام خير؟ فقال: "تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم

(١) في ظلال القرآن، جـ٣، ص١٢٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، جـ١، ص٢٦٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) شرح صحيح مسلم، جـ١، ص٦٩.

(٥) جامع العلوم والحكم، ص٣٠- ٣١.

تعرف"[1]، وفي قوله صلى الله عليه وسلم... ومن ستر مسلماً ستره الله"[2]. فيضع المطالبة بالجزئيات في إطار مفاهيم الدين الإسلامية كمفهوم الإسلام ومفهوم الأخوة. ومن الأمثلة كذلك على هذه النسقية والتي تُظهر بوضوح ارتباط الجزئيات العملية بأصول إيمانية في خطاب الشارع: قوله صلى الله عليه وسلم: "السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب" [3]. وكذلك ارتباط جملة الفرائض بجملة الجزئيات في خطاب الشارع كما في الحديث القدسي: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه".

وإطار نسقية الجزئيات يتطلب النظر إلى الجزئيات على أنها تتكامل مع الواجبات وتتناسق مع الكليات بحيث تؤدي معها إلى أداء متميز للعبادة مبني على رؤية شمولية متعاضدة لأمور الدين بما يبديها نظاما متماسكا متتاما. ويجد الباحث في كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عدي بن عدي والذي صدّر به البخاري كتاب الإيمان تأكيدا واضحاً لنسقية جزئيات الدين مع كلياته، حيث يقول:" إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان"[4]. وكذلك في فهم ابن رجب لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي" [5]حيث يقول في شرحه: " والسّنة هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك بما كان عليه هو (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون من الاعتقاد والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ح رقم (١٢).

(٢) المصدر السابق، كتاب المساقاة، ح رقم (٢٣١٠).

(٣) المصدر السابق، كتاب الصوم، باب (٢٧) السواك الرطب واليابس.

(٤) المصدر السابق، كتاب الإيمان باب (١) قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.

(٥) سنن أبي داود، باب لزوم السنة، ح رقم(٤٦٠٩)، والترمذي، كتاب العلم، ح رقم(٢٨٩١)، وقال: حديث حسن

كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنّة إلا على ما يشمل ذلك كله"[1].

وكما يلحظ فإنه أدرج جزئيات الدين بكلياته وفروعه بأصوله وأقواله بمعتقداته مما على انتظام هذا الدين لأموره بنسقية محكمة.

إنّ نسقية الجزئيات في الخطاب الشرعي تؤكد طبيعته التكاملية الترابطية من جهة، والوعي بها وقراءة الجزئيات من خلالها تعني استخدام منهجية القراءة الكلية أو المنظور الكلي، حيث ترى الجزئيات في مواقعها الطبيعية وأبعادها الصحيحة من كليات الدين وأصوله ومفاهيمه، الأمر الذي يقود إلى تأدية مستنيرة وتدين مقاصدي، ينفذ الجزء وهو يرى الكل، ويأخذ بالفرع وهو يتأثر بالأصل. ولقد وجد الباحث صدى هذه النسقية وتطبيقاتها في مواضع كثيرة في صحيح البخاري، كان من أبرزها ما أورده في كتاب التوحيد من جزئيات دينية عديدة. ظهر من خلالها انتماؤها لأطر كلية وانتظامها بأصول لإيمانية كبرى، فمثلاً ذكر النوم الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا جاء أحدكم فراشه...، وليقل باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه..."[2]، أدرجه البخاري في كتاب التوحيد، وبوّب له بقوله: (باب السؤال بأسماء الله تعالى) في مرمى يشير إلى الرؤية الكلية لأطر التدين بالجزئيات ومنهجية التعامل معها.

٣- إطار الهوية الحضارية. فخطاب الشارع عموماً يهدف إلى تكوين أمة مؤمنة وشخصية مسلمة لها خصائصها وتوجهاتها ومظاهرها التي تنفرد بها وتمتاز عن غيرها من الأمم ومن الشخصيات الإنسانية، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة، ٤٨]. والتدين بالجزئيات هو محور من محاور خطاب الشارع ومطالبه، والقيام بأمره إقامة لأمر من أمور الدين. وتحقيق لمظهر من مظاهر الرسالة، وهو يسهم حتماً

(١) جامع العلوم والحكم، ص٢٦٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ح رقم (٦٩٥٨).

برسم ملامح الشخصية المسلمة والهوية الحضارية للأمة بخاصّة حينما ينفذ بتكامل مع كليات الدّين وتناسق مع واجباته. فليس التدين بجزئيات الدين في ميادينها المتنوعة- والتي سبقت الإشارة إليها [1]- من مثل: إشاعة تحيّة السلام في المجتمع الإسلامي على من تعرف ومن لا تعرف، واستحضار بركة اسم الله في المدخل والمخرج وفي الحركة والموقف، والإحسان إلى البيئة وتكثير غرسها، وإلى عالم الحيوانات والتلطف في حملها وإطعامها، والمحافظة على نظافة فناء البيت والشارع وتحرّي إزالة الأذى منها، والاحتياط في عدم إيذاء الناس، والعطف على عالم الطفولة والتودد إلى فئة الكهولة، والتعاون المستمر في تقديم المعونة المجانية للآخرين، وطلاقة الوجه، والحرص على عدم التشبه بالكفار في مسالكهم الخاصّة بهم، والتميّز حتى في صفة دفن المسلم وشكل قبره[2]، وترتيب شعره وتسريحه وغيرها كثير من جزئيات الدين إلا لتؤكد جنباً إلى جنب مع أصولها التي تنتمي إليها ومع واجبات الدين الأساسية ضرورة العناية بالهوية الحضارية للأمة المسلمة والسعي الدؤوب إلى تميز شخصيتها: أفراداً وأسراً ومؤسسات ومجتمعات وبيئات.

ثانياً: موجّهات التديّن بالجزئيات:

بتتبع سياقات النصوص الشرعية ذات الصلة بموضوع "الجزئيات" الدينية، وبالنظر بمعطياتها يمكن استنتاج مجموعة من الأمور التي تضبط عملية التديّن بالجزئيات وتوجهها بما يحقق تطبيقاً سليماً لها، وهي ما أطلق عليها الباحث "موجّهات التديّن بالجزئيات". ومن هذه الموجّهات الأساسية في عملية التديّن بالجزئيات ما يأتي:

---

(١) راجع المبحث الأول: ميادين "الجزئيات" الدينية.

(٢) كل هذه الأمور وغيرها من الثابت في الشرع والأدلة عليه متوافرة في الصحيحين.ولم يشأ الباحث أن يذكر مع كل منها دليلاً أو أكثر لئلا يؤدي ذلك إلى تضخيم الكلام وتكثيره بما قد يرهق القارئ، وأيضاً لأن طبيعة الفكرة المعروضة لا تتطلب أكثر من إيراد الأمثلة والعناوين بصورتها المذكورة.

١- إخلاص القصد؛ فمن المعلوم في أصول شريعتنا الإسلامية أنّ أمر الدين يقوم على إخلاصه لله تعالى، كما في الآية الكريمة ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، يقول الآلوسي في هذه الآية: " وهذه الجملة تأكيد لاختصاص الدين به تعالى؛ أي ألا هو سبحانه الذي يجب أنّ يخصّ بإخلاص الدين له تعالى لأنّه المنفرد بصفات الألوهية التي من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر"[(١)]، ثم قال: "وفي الآية دلالة على شرف الإخلاص بالعبادة "[(٢)].ومن جملة الدين الذي جاء به الوحي "الجزئيات"، وبالتالي فلا بدّ بالتعبّد فيها لله تعالى من إخلاص القصد لله تعالى، أي: " إفراد الحقّ سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب إلى الله تعالى دون شيء آخر: من تصنّع لمخلوق، أو اكتساب محمدةٍ عند الناس، أو محبة مرحٍ من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى الله تعالى"[(٣)]. ومراعاة القصد في التعبّد بالجزئيات مطلب أكثر إلحاحاً على النّفس ويحتاج العبد فيه مزيد احتياط لكونها غالبا ما تقع خارج دائرة الكليات الشرعية التي يفعلها أغلب العباد، أو التي من المتوقع أن يفعلها العبد. والأمثلة في نصوص الشرع التي يراعى فيها هذا "الموجّه": إخلاص القصد في التعبّد لله بالجزئيات كثيرة، ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (من اتبع جنازة مسلم، إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين)[(٤)]. فتضمن الخطاب النبوي مراعاة إخلاص القصد لله تعالى (إيماناً واحتساباً) بالتديّن لله تعالى بهذه الجزئية من الدين، وهي اتباع الجنائز. ذلك أن مطلب إخلاص القصد من حيث الجهة المقصودة به هو أمر في الأهمية يستوي فيه فعل كلّيات الدين أو

(١) روح المعاني، جـ ١٧ ، ص٤١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) الأذكار، ص٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ح رقم (٤٧).

جزئياته لكونه يراعي حق الله الخالص في العمل الذي لا يشركه فيه غيره.

ويظهر مراعاة هذا الموجّه (إخلاص القصد) في منهجية علماء الأمة في جميع الميادين، ومنها: ميدان التأليف تجد البداءة به في مؤلفاتهم التي تناولت كليات الدين وجزئياته، كما صنع البخاري في مقدّمة صحيحة حيث ابتدأه. بحديث "إنما الأعمال بالنيات" [1]، وكذلك في مؤلفاتهم التي تناولت جزئيات الدّين، كما صنع النووي في كتابه الأذكار حيث ابتدأه بقوله: " فصل: في الأمر بالإخلاص وحسن النيات في جميع الأعمال الظاهرات والخفيات" [2]. ولذا يتوجّب على من يعمل بجزئيات الدِّين أن يراعي إخلاص القصد فيها لله تعالى.

٢- التفقه السليم والأداء المتقن، وهذا موجّه غاية في الأهمية لعملية التطبيق والعمل بالجزئيات الدينية، إذ لابدّ من التفقه السليم في جزئيات الدين ليكون الأداء لها موافقاً للشرع، ولابدّ كذلك من الإتقان أداء هذه الجزئيات لتكون منسجمةً مع نظام الشرع وأخلاقياته. وتظهر محدّدات التفقه السّليم باعتبار المرجعية المعتمدة في استمداد جنس الجزئيات وأنواعها والذي يتمثل بالوحي ؛ الكتاب والسنة نظرياً، والسنة تطبيقاً، وهذه المرجعية تؤدي دورها في التديّن بالجزئيات، إذ بها يتحدّد ثبوت الجزئية المراد التديّن بها وصحّة انتسابها للشرع من عدمه.وقد كان هذا الجانب مراعاً على أتمّه في منهجية الصحابة وفقه تدينهم في الكليات والجزئيات على حدّ سواء، كما في موقف استئذان أبي موسى الأشعري على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ثلاثاً، فلم يأذن له، فانصرف، فطلبه عمر فقال له: " ما ردّك؟ كنّا في شغل، فقال أبو موسى الأشعري: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع). فقال له عمر: لتأتينّي على هذا ببيّنة...، فأتاه بأبي بن كعب رضي

(١) المصدر السابق، كتاب الوحي، ح رقم (١).

(٢) الأذكار، ص٤ .

الله عنه، فشهد له، وقال لعمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك يا ابن الخطاب، فلا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: سبحان الله! إنما سمعت شيئاً، فأحببت أن أتثبت" [1]. وهذا الموقف المنهجي من عمر رضي الله عنه يقع تطبيقاً لمنهجية الإسلام العملية التي تأبى أن ينسب شيء إلى غير صاحبه، وبخاصة إذا ما تعلّق الأمر بالوحي، فلابدّ أن النسبة على درجة من اليقين لئلاّ يعمل العاملون بغير شرع أو يفوتهم عمل بشرع، ولئلاّ يتداخل فيه الشرع بغير الشرع. يقول النووي في شرحه لهذا الحديث: " وأما قول عمر لأبي موسى: أقم عليه البيّنة، فليس معناه ردّ خبر الواحد من حيث هو خبر واحد، ولكن خاف عمر مسارعة الناس إلي القول على النبي صلى الله عليه وسلم حتى يقول عليه بعض المبتدعين أو الكاذبين أو المنافقين ونحوهم ما لم يقل، وأن كل من وقعت له قضية وضع فيها حديثاً على النبي صلى الله عليه وسلم، فأراد سدّ الباب خوفاً من غير أبي موسى الأشعري"[2].

ولذلك حرص علماء السنة- اقتفاء بمنهجية عمر رضي الله عنه- على تمحيص المظان العلمية التي يغلب عليها الإكثار من سرد جزئيات الدّين، وبخاصّة كتب الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

ومن الأدوار التي يؤدّيها وضوح المرجعية واعتبارها في فقه التديّن المتعلق بالجزئيات، تحديدها الصفة الشرعية في ممارسة الجزئية الدّينية وحسم التنازع الممكن حولها بما يحقق تطبيقاً سليماً لها، ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول نافع: " كان ابن عمر رضي الله عنه يصلّي لكل أسبوع ركعتين. وقال إسماعيل بن أمية: قلت للزهري: إنّ عطاء يقول: تجزئه المكتوبة من ركعتي الطواف؟ فقال: السنة أفضل، لم يطف النبي

(١) صحيح مسلم، باب الاستئذان، ح رقم (٥٧٥٩).

(٢) شرح صحيح مسلم، جـ ٧، ص٢٧٨.

صلى الله عليه وسلم سبوعاً قط إلا صلّى ركعتين"[1]. وكذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما لمؤذنه في يوم مطير: إذا قلت: أشهد أن محمداً رسول الله، فلا تقل حيّ على الصلاة، قل صلّوا في بيوتكم. فكأن الناس استنكروا، قال: فعله من هو خير مني "[2]، وعن عكرمة قال: " رأيت رجلاً عند المقام، يكبر في كلّ خفض ورفع، وإذا قام وإذا وضع، فأخبرت ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: أوليس تلك صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، لا أمّ لك" [3].

وهذه المنهجية في اعتبار مرجعية الوحي في التديّن بأمور الدين كلها ومنها الجزئيات أشار إليها الشافعي بكل وضوح، بقوله: " أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس"[4]. وتطبيق لهذه المنهجية في مراحل تطبيق التديّن بالجزئيات من شأنه إتقانها والإتيان بها على الوجه المرضي والصفة المقرّرة وبالشروط المشروعة.

ومن المواقف العملية التي تؤكد مثل هذه النتيجة ما يرويه أنس رضي الله عنه، حيث يقول: عطس رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله، شمّت هذا ولم تشمتني قال: (إنّ هذا حمد الله، ولم تحمد الله)[5]. وهذا يدل على أهمية الحرص على تطبيق جزئيات الدين وإتقانها بالقدر المرسوم لها شرعاً.

ومن محدّدات التفقه السليم والأداء المتقن، فقه مراتب الجزئيات وتنّوعها المشروع،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الحجّ، باب: صلى النبي صلى الله عليه وسلم لسبوعه ركعتين.

(٢) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٨٥٩)

(٣) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٧٥٤).

(٤) إعلام الموقعين، جـ١، ص٧.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح رقم (٥٨٧١).

فمن الواضح في طبيعة خطاب الشارع المتعلّق بأعمال المكلفين أنه جاء بمستويات من الطلب والكف والإباحة اندرجت فيها الأحكام الشرعية الخمسة المعتبرة: الواجب، المندوب، المباح، المكروه، والمحرّم [1]، وصنّفت أمور الشريعة على أساسها إلى كليات وجزئيات وأصول وفروع لابدّ من مراعاتها عند العمل بها. وحتى في دائرة الكليات هناك مراتب في أنواعها ، وكذلك في دائرة الجزئيات هناك أيضا مراتب لأنواعها ولآحادها لابدّ من تداركها أثناء عملية التديّن بها.

وفقه مراتب الأعمال: " هو من أنواع الفقه التي يجب أن يتعلمها المسلم ويهتم بها، وهو يعني: العلم بفاضل الأعمال ومفضولها وأرجحها ومرجوحها، فإن كانت الأعمال طاعة علم أيها أحبّ إلى الله وأكثرها أجراً وثواباً...، وإن كانت الأعمال وسيلة إلى أهداف معينة علم أيها أقدر على تحقيق هذه الأهداف، وأيها أولى بذلك، وإذا جهل المسلم أي الأعمال أفضل وأولى لا شك أنه ينفق وقته وجهده وماله في أجر أقلّ ويفوت ما هو أجل وأعظم، وأنه إذا اختلطت لديه مراتب الأعمال واختل لديه توازنها قد يصل إلى عكس مقصود الشرع " [2]، وحديث شعب الإيمان فيه إشارة واضحة إلى مراتب الأعمال في الشريعة سواء كانت كليات أو جزئيات لأنه من الأحاديث الشمولية في أمور الدين، يقول ابن حجر في فوائد الحديث: " وفي هذا إشارة إلى أن مراتبها متفاوتة" [3]. والفقه بهذا التفاوت في مراتب الأعمال فيما يتعلق بالجزئيات من شأنه أن يقود إلى تطبيق سليم في أدائها وإتقان في صورتها وتحقيق الأجر الأكمل عليها وتحصيل الفائدة الأعظم المرجوة لها. كما يحصل في تقديم الصلاة على الجنازة واتباعها ومشاركة

(١) راجع: علم أصول الفقه، ص ٨٤- ٩٢.

(٢) فقه مراتب الأعمال الشرعية، ص ٩٥ .

(٣) فتح الباري، جـ١ ، ص٧٧.

المسلم في أحزانه على الانفراد في المسجد للذكر في ذلك الوقت. وفقه مرتبة الجزئية المتدين بها يحول دون التنقّص من مرتبتها أو التزيّد عليها، لذلك كان أنس رضي الله عنه ينفتل عن يمينه وعن يساره، ويعيب على من يعمد الانفتال عن يمينه، وقال في ذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لا يجعل أحدكم للشيطان عليه شيئا من صلاته يرى أنّ حقا عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه، لقد رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم كثيراً ينصرف عن صلاته[1].قال ابن حجر: " وإنما كره ابن مسعود أن يعتقد وجوب الانصراف عن اليمين" [2]. وقال ابن المنير: " فيه أن المندوبات قد تنقلب مكروهات إذا رفعت عن رتبتها"[3].

وإضافة لهذا النوع المطلوب من الفقه في مراتب الأعمال الجزئية، هناك فقه تمسّ الحاجة إليه لكثير تعلقه بخطاب السنة النبوية المتعلق بالجزئيات، حيث ترد في فعل الجزئية الواحدة أكثر من صفة وكلها مشروعة، وهو " فقه التنوع في الجزئيات المشروعة"، وقد يظنّ من لا يفقه هذا الجانب أنها من باب المتعارضات فيذهب للترجيح بينها، أو يظن صحّة بعضها دون بعض، فيضعف بعضها ولا يعمل بأخرى. ولذلك تعليقاً على حديث ابن مسعود رضي الله عنه: " أكثر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصرف عن شماله" [4]، وعلى حديث أنس رضي الله عنه: " أكثر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصرف عن يمينه" [5]، قال النووي: " ووجه الجمع بينهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل تارة هذا وتارة هذا، ولا كراهة في واحد منهما" [6]. وقد ضرب ابن تيمية أمثلة عديدة على هذا النوع من فقه التنوع في الجزئيات المشروعة مثل: تطويل القراءة

(١) صحيح البخاري، كتاب الأذان، ح رقم(٨٥٢).

(٢) فتح الباري، جـ٢، ص٦٠٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، ح رقم (١٦٧٢).

(٥) المصدر السابق، ح رقم (١٦٧٤).

(٦) شرح صحيح مسلم، جـ٣، ص٢٤.

وتخفيفها، والجهر بالقراءة في قيام الليل والمخافتة، وأنواع القراءات، وإفراد الإقامة وتثنيتها ودعاء الاستفتاح وغير ذلك، ثم أشار إلى أن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك يكون بأن يفعل هذا تارة وهذا تارة وأنه أفضل من لزوم أحد الأمرين وهجر الآخر[1]. وهذا الفقه من شأنه أن يمنع وقوع خلافٍ في صفة جزئية دينية لها أوجه متعددة وكلها مشروعة، كما أشار الشافعي لشيء من ذلك في صفة التشهد[2].

٣- مراعاة الفروق الفردية[3]، وهو موجه أساسي في طبيعة خطاب الشرع ومضمونه التكليفي عموماً، وذلك لمناط تعلقه بالذات الإنسانية ولتقديره لطبيعتها والتي تعتبر الفروق الفردية من أخصّ خصائصها التي تتصف بها، وذلك ظاهر فيما يتعلق بكليات الدين وجزئياته، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [فاطر، ٣٢] يقول ابن كثير: " ثم جعلنا القائمين بالكتاب الذين اصطفينا من عبادنا- وهم هذه الأمّة- ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك المستحبات ويفعل بعض المكروهات، ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات [4]. فلم يكن تدينهم بأصول الدين وفروعه وجزئياته وكلياته في مستوى واحد، بل بينهم اختلاف واضح، يرجع فيما يرجع إليه

(١) مجموع الفتاوي، جـ٢٢، ص٣٣٥، جـ٢٤، ص٢٤٦.

(٢) الرسالة، ص ٢٦٧- ٢٧٧.

(٣) هناك تعريفات عدّة للفروق الفردية، منها: تلك الصفات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره من الأفراد في مختلف الجوانب والميادين. الفروق الفردية، ص ٧، ٢٠- ٢٣.

(٤) تفسير القرآن، جـ٣، ص ٦٠٩ .

تعرف"[١]، وفي قوله صلى الله عليه وسلم... ومن ستر مسلماً ستره الله"[٢]. فيضع المطالبة بالجزئيات في إطار مفاهيم الدين الإسلامية كمفهوم الإسلام ومفهوم الأخوة. ومن الأمثلة كذلك على هذه النسقية والتي تُظهر بوضوح ارتباط الجزئيات العملية بأصول إيمانية في خطاب الشارع: قوله صلى الله عليه وسلم: "السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب" [٣]. وكذلك ارتباط جملة الفرائض بجملة الجزئيات في خطاب الشارع كما في الحديث القدسي: "وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه".

وإطار نسقية الجزئيات يتطلب النظر إلى الجزئيات على أنها تتكامل مع الواجبات وتتناسق مع الكليات بحيث تؤدي معها إلى أداء متميز للعبادة مبني على رؤية شمولية متعاضدة لأمور الدين بما يبديها نظاما متماسكا متتاما. ويجد الباحث في كلام عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عدي بن عدي والذي صدّر به البخاري كتاب الإيمان تأكيدا واضحاً لنسقية جزئيات الدين مع كلياته، حيث يقول:" إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان"[٤]. وكذلك في فهم ابن رجب لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي" [٥]حيث يقول في شرحه: " والسّنة هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك بما كان عليه هو (صلى الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون من الاعتقاد والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ح رقم (١٢).

(٢) المصدر السابق، كتاب المساقاة، ح رقم (٢٣١٠).

(٣) المصدر السابق، كتاب الصوم، باب (٢٧) السواك الرطب واليابس.

(٤) المصدر السابق، كتاب الإيمان باب (١) قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس.

(٥) سنن أبي داود، باب لزوم السنة، ح رقم(٤٦٠٩)، والترمذي، كتاب العلم، ح رقم(٢٨٩١)، وقال: حديث حسن

كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنّة إلا على ما يشمل ذلك كله"[1].

وكما يلحظ فإنه أدرج جزئيات الدين بكلياته وفروعه بأصوله وأقواله بمعتقداته مما على انتظام هذا الدين لأموره بنسقية محكمة.

إنّ نسقية الجزئيات في الخطاب الشرعي تؤكد طبيعته التكاملية الترابطية من جهة، والوعي بها وقراءة الجزئيات من خلالها تعني استخدام منهجية القراءة الكلية أو المنظور الكلي، حيث ترى الجزئيات في مواقعها الطبيعية وأبعادها الصحيحة من كليات الدين وأصوله ومفاهيمه، الأمر الذي يقود إلى تأدية مستنيرة وتدين مقاصدي، ينفذ الجزء وهو يرى الكل، ويأخذ بالفرع وهو يتأثر بالأصل. ولقد وجد الباحث صدى هذه النسقية وتطبيقاتها في مواضع كثيرة في صحيح البخاري، كان من أبرزها ما أورده في كتاب التوحيد من جزئيات دينية عديدة. ظهر من خلالها انتماؤها لأطر كلية وانتظامها بأصول لإيمانية كبرى، فمثلاً ذكر النوم الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا جاء أحدكم فراشه...، وليقل باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه..." [2]، أدرجه البخاري في كتاب التوحيد، وبوّب له بقوله: (باب السؤال بأسماء الله تعالى) في مرمى يشير إلى الرؤية الكلية لأطر التدين بالجزئيات ومنهجية التعامل معها.

٣- إطار الهوية الحضارية. فخطاب الشارع عموماً يهدف إلى تكوين أمة مؤمنة وشخصية مسلمة لها خصائصها وتوجهاتها ومظاهرها التي تنفرد بها وتمتاز عن غيرها من الأمم ومن الشخصيات الإنسانية، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة، ٤٨]. والتدين بالجزئيات هو محور من محاور خطاب الشارع ومطالبه، والقيام بأمره إقامة لأمر من أمور الدين. وتحقيق لمظهر من مظاهر الرسالة، وهو يسهم حتماً

(١) جامع العلوم والحكم، ص٢٦٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، ح رقم (٦٩٥٨).

برسم ملامح الشخصية المسلمة والهوية الحضارية للأمة بخاصّة حينما ينفذ بتكامل مع كليات الدّين وتناسق مع واجباته. فليس التدين بجزئيات الدين في ميادينها المتنوعة- والتي سبقت الإشارة إليها [1]- من مثل: إشاعة تحيّة السلام في المجتمع الإسلامي على من تعرف ومن لا تعرف، واستحضار بركة اسم الله في المدخل والمخرج وفي الحركة والموقف، والإحسان إلى البيئة وتكثير غرسها، وإلى عالم الحيوانات والتلطف في حملها وإطعامها، والمحافظة على نظافة فناء البيت والشارع وتحرّي إزالة الأذى منها، والاحتياط في عدم إيذاء الناس، والعطف على عالم الطفولة والتودد إلى فئة الكهولة، والتعاون المستمر في تقديم المعونة المجانية للآخرين، وطلاقة الوجه، والحرص على عدم التشبه بالكفار في مسالكهم الخاصّة بهم، والتميّز حتى في صفة دفن المسلم وشكل قبره[2]، وترتيب شعره وتسريحه وغيرها كثير من جزئيات الدين إلا لتؤكد جنباً إلى جنب مع أصولها التي تنتمي إليها ومع واجبات الدين الأساسية ضرورة العناية بالهوية الحضارية للأمة المسلمة والسعي الدؤوب إلى تميز شخصيتها: أفراداً وأسراً ومؤسسات ومجتمعات وبيئات.

ثانياً: موجّهات التديّن بالجزئيات:

بتتبع سياقات النصوص الشرعية ذات الصلة بموضوع "الجزئيات" الدينية، وبالنظر بمعطياتها يمكن استنتاج مجموعة من الأمور التي تضبط عملية التديّن بالجزئيات وتوجهها بما يحقق تطبيقاً سليماً لها، وهي ما أطلق عليها الباحث "موجّهات التديّن بالجزئيات". ومن هذه الموجّهات الأساسية في عملية التديّن بالجزئيات ما يأتي:

---

(١) راجع المبحث الأول: ميادين "الجزئيات" الدينية.

(٢) كل هذه الأمور وغيرها من الثابت في الشرع والأدلة عليه متوافرة في الصحيحين.ولم يشأ الباحث أن يذكر مع كل منها دليلاً أو أكثر لئلا يؤدي ذلك إلى تضخيم الكلام وتكثيره بما قد يرهق القارئ، وأيضاً لأن طبيعة الفكرة المعروضة لا تتطلب أكثر من إيراد الأمثلة والعناوين بصورتها المذكورة.

وبهذه الحدود المنهجية التي تتكامل فيما بينها، تتحقق صورة التديّن بالجزئيات المنضبط والموجّه بتوجيهات الشارع الحكيم، حيث إخلاص القصد لله تعالى بها، والأداء المتقن لها المبني على مرجعية علمية سليمة، مع مراعاة الفروق الفردية بما يحفظ ديمومة التديّن بهذه الجزئيات المشروعة والاستمرارية المعتدلة عليها، الأمر الذي يحقق قبولاً من الله تعالى ومحبة منه لهذه الصورة من التديّن ورضاً عن صاحبها الذي يؤديها.

* * *

المبحث الثالث: دوافع التديّن بالجزئيات ومقاصده:

بتحليل الخطاب النبوي المتضمن أموراً شرعية ذات صلة بجزئيات الدين، يظهر أنها محمّلة بدوافع ومقاصد تؤثر في عملية التديّن بالجزئيات وتفعيلها وتحريك العبد باتجاه العمل بها إيجابياً. وفيما يأتي عرض لهذه الدوافع والمقاصد:

أولاً: دوافع التديّن بالجزئيات:

تشكل الدوافع عموماً المحرك الأساسي للسلوك الإنساني والموجه له لتحقيق هدف معين[1]، فالسلوك الإنساني مدفوع[2]، والتدين التي يظهر في سلوك العبد ومواقفه لا شك أنه تقف وراءه دوافع تؤدي إليه، وهذا الأمر يعمّ في السلوك الديني الإسلامي في سائر أمور الشرع، ومن بينها الجزئيات الدينية.

وقد كشفت دراسة الباحث لدوافع التديّن بالجزئيات كما يمكن ملاحظتها من خلال نصوصها والخطاب الخاص بها عن اعتبار دافعين أساسين:

الأول منهما: يتمثل في تحصيل الأجور والمنازل الكريمة: فبالنسبة للمسلم يشكل حصوله على الأجر والمنزلة الكريمة دافعاً أساسياً يقف وراء كثيرٍ من التزاماته الدينية عموماً، ومنها جزئيات الدين، وقد راعى الشرع هذا التوجّه في النفس الإنسانية واعتبره لها حينما قرّر لها حصول الأجر على السلوك المحدود جداً، كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة ٧- ٨]، يقول الشافعي تعليقا على هذه الآية الكريمة: "فكان ما هو أكثر من مثقال ذرة من الخير أحمدَ، وما هو أكثر من مثقال ذرة من الشر أعظم في المأثم" [3]، وكذا قرر الشارع هذا الدافع في التدين بالجزئيات حينما اعتبر المنزلة الكريمة(المحبة) محركاً رئيسياً وراء

(١) سيكولوجية التعلّم والتعليم، ص١٧٣- ١٧٤.

(٢) علم النفس التربوي في الإسلام، ص١٤٩

(٣) الرسالة، ص٥١٥.

استمرارية العبد وإكثاره من العمل بجزئيات الدين وذلك كما في الحديث: "ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه"[1].يقول ابن رجب في وصف الفئه العاملة بهذا الدافع: "وهم الذين تقربوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في النوافل والطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله، ومن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه والزلفى لديه والحظ عنده"[2].

وهذا الدافع الأساسي باتجاه التديّن بالجزئيات الشرعية يوجد له حظه في فقه البخاري، حيث قال في أحد تبوياته: "باب: احتساب الآثار"، وذكر فيه حديث أنس رضي الله عنه: أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم، فينزلون قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعروا[3]، فقال: "ألا تحتسبون آثاركم". قال مجاهد: خطاهم آثارهم، أن يمشي في الأرض بأرجلهم[4].

ومزيداً من تأكيد دافعية تحصيل الأجور في التدين بالجزئيات- لرغبة النفس الإنسانية بالمحبوبات والمرغوبات- تأتي المنهجية النبوية لتشير إلى عناية الله بأجر العبد على فعل الجزئية التي قد لا يلقي لها بالاً. وتوليه سبحانه مضاعفة أجرها بنفسه الكريمة، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثمّ يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه[5]، حتى تكون مثل الجبل"[6] والوعي بهذا الدافع الفريد في شريعتنا

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح رقم (٦٥٠٢).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٣٦٠.

(٣) المعنى: أن تصير خالية. فتح الباري، ج٢، ص٣٥٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (٦٢٥).

(٥) المعنى: مُهره.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، ح رقم (١٣٤٤).

الإسلامية هو ما يجعل الموقف الصغير يبدو كبيراً، والإحجام عن فعل خير أو الإقدام على فعل شر بسيط لا يستهان به في حسّ العبد لكونه ينظر إلى الدافع وراء ذلك، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[1]، وهذا ما جعل موقف عائشة رضي الله عنها في التدين بالجزئيات فوق كلّ اعتبارات النظرة المادية المباشرة المعزولة عن أجر الآخرة مفقودة في حسابها. تقول رضي الله عنها: " دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها"[2]. ويروي ابن كثير في تفسير الآية ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة، ٧]، أن عائشة رضي الله عنها تصدقت بعنبة، وقالت، كم فيها من مثقال ذرة؟ وهذا كله وعي بدلالات خطاب الشارع وما انطوى عليه من دوافع ومحركات تستجيب لها نفس المؤمن لأداء التديّن بأمور الدين الفرعية والجزئية كما الكلية تقديراً للباعث لها، وبخاصة حينما يكون منزلة يحظى بها في الآخرة، كالمحبّة والولاية، وكالشفاعة كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال حين يسمع النداء: اللهمّ ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة" [3]، فهنا الشفاعة تنال بمقابل التدين بقول وأمر هو من جزئيات التدين يتمثل بالترديد وراء المؤذن ثم ذكر هذا الدعاء، لتكون له منزلة الشفاعة، ولا شك أن هذا يشكل دافعاً ومحرّكا للعبد للمواظبة على هذا النوع من التدين رجاء الحظوة بشفاعة نبيّه صلى الله عليه وسلم التي هي مطلب لكل نفس مؤمنة.

ومن أمثلة التديّن بالأمور الدينية الجزئية التي تشكل دافعية الأجور وتحصيل المنازل والمكاسب أساساً مراعَى في الخطاب النبوي الخاص بها، هو: دعوة الشارع إلى أن يقول

(١) المصدر السابق، ح رقم (١٣٤٥).

(٢) المصدر السابق، ح رقم (١٣٥٢).

(٣) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٥٨٩).

العبد (يذكر): لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في اليوم مائة مرّة، لينال الجملة الآتية من الأجور:

١- كانت له عدل عشر رقاب، أي كمن أعتق عشرة من العبيد في سبيل الله تعالى.

٢- كتبت له مائة حسنة.

٣- محيت عنه مائة سيئة.

٤- كانت وقاية له من الشيطان يومه ذاك.

٥- لم يأت أحد بأفضل مما جاء به من عمل إلا من زاد[١].

إن ترتيب هذه الأجور وبهذا التفصيل وبهذه النوعية لم يكن عفوياً حضوره في الخطاب النبوي المتصل بالتديّن بالجزئيات، وما ذاك إلا ليكون محفزاً قويا للعبد باتجاه التطبيق العملي بهذا الأمر الديني. فهو يؤكد اعتبار الدافعية في منهجية الخطاب النبوي.

وأمّا الدّافع الثاني للتدين بالجزئيات فيتمثل في: تحقيق الاقتداء والإتباع. فالاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في التديّن عموماً أصل لازم في شريعتنا، لا تنفك عنه كليات الدّين ولا جزئياته، ولا يجوز أن تخرج عنه حال العبد في معتقداته وسلوكه ومواقفه في حلّه وترحاله تنفيذا لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب، ٢١]، يقول ابن كثير: "هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وأحواله"[٢]. ولذلك يشكل تحقيق الاقتداء وتحقيق الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم دافعاً رئيساً في تديّن العبد وفي عمله بكل أمورالدين ومنها جزئياته والتي تحتاج في كثير منها إلى بواعث قوية للعمل بها

(١) المصدر السابق، كتاب بدء الخلق، ح رقم(٣١٠٨).

(٢) تفسير القرآن، جـ٣، ص٥٢٢.

لكونها خارج إطار المأمورات الكلية. وهذا ما يظهر في التطبيقات العملية في تديّن الصحابة وغيرهم بالجزئيات، فقد بوّب البخاري في صحيحه: "باب: التيمن في دخول المسجد وغيره. وكان ابن عمر يبدأ برجله اليمنى، فإذا خرج بدأ برجله اليسرى. ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبّ التيمن ما استطاع، في شأنه كله، في طهوره وترجله وتنعله)[1]. ويروي لنا نموذجاً في كون دافعية الاقتداء وتحقيق الاتباع كانت وراء تنفيذ التدين بالجزئيات، فيقول: عن أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العتمة، فقرأ: (إذا السماء انشقت)، فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه. ويحدّث عمر بن أبي سلمة، يقول: :كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل ممّا يليك"، فما زالت تلك طعمتي بعد"[2]. وليس المقصود هنا سرد النماذج والأمثلة ولا التحدّث عن أهمية الاقتداء وفضائله وحث العلماء الكثير عليه، فذلك أمر لا يخفى نصيبه في فقه المسلمين[3]، وإنما المقصود تقديم شواهد تؤكد كون الاتباع وتحقيق الاقتداء يشكل دافعاً وباعثاً للتدين بجزئيات الشريعة.

ثانياً: مقاصد التديّن بالجزئيات:

ثمّة مقاصد معتبرة يمكن تحقيقها من خلال التديّن بالجزئيات الشرعية – ومن باب أول الكليات- ومن هذه المقاصد:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم(٤١٦).

(٢) المصدر السابق، كتاب الأطعمة، ح رقم (٥٠٦١).

(٣) وممن رصد التطبيقات لهذا الاقتداء وفضائله: الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، والإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين)، والإمام ابن القيم في كتابه (زاد المعاد).

١- المقصد العملي، فالعمل في المنظور الإسلامي هو الغاية الأساسية من وراء المعرفة والعلم، ولا شك أن التديّن بالجزئيات يسهم في تحقيق هذا المقصد الأساسي للخطاب الشرعي والذي يتمثل بالعمل، تكاملاً مع التدين بسائر أمور الشرع، ويظهر هذا المقصد العملي في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قل آمنت بالله ثمّ استقم)[١]، قال ابن رجب: " والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك"[٢] وقد كان هذا المقصد حاضراً في منهجية عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى عدي بن عدي، حيث يقول فيه: "إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبيّنها لكم حتى تعملوا بها" [٣]، فواضح توخّيه الغاية العملية من تفصيله لأمور الدين الذي يزمع القيام به.

وتدين العبد بالجزئيات الدينية يصبّ في تحقيق المقصد العملي الذي يميّز الدين الإسلامي وبه يتميّز العبد المسلم، وهو المقصود الأول من العلم، يقول الشاطبي حول هذا المقصد: " كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي"[٤]، ويقول أيضاً: "روح العلم هو العمل، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به "[٥]. وما جاء به الشرع من الأمور الجزئية الكثيرة فليس المقصود منها مجرّد حفظها ومعرفتها، بل العمل بها وتطبيقها والتديّن بها، وفاءً بغاياتها وأخذاً بمقصدها لتؤتي ثمارها ويعود نفعها على العامل بها. وفي تجربة ابن الجوزي عبرة وموافقه، إذ يقول في صيد الخاطر تحت عنوان" خطر العلم مع قلّة العمل": "لمّا رأيت نفسي في العلم

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ح رقم (١٦٨).

(٢) جامع العلوم والحكم، ص٢٠٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الحب في الله والبغض في الله من الإيمان.

(٤) الموافقات، جـ١، ص٣١.

(٥) المصدر السابق، جـ١، ص٤٢.

حسناً، فهي تقدّمه على كل شيء وتعتقد الدليل ، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل...، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادّة السليمة والرأي الصحيح. إلا إني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟ أين الخوف؟ أين القلق؟ أين الحذر؟ أما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟...، أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم. إحذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به"[1]. ويقول أيضا في وصفه لبعض أصناف العلماء بعد تأمّل في حالهم: " ومنهم من هو واقف مع صورة العلم، غافل عن المقصود وهو العمل"[2]، ولا شك أن العمل بجزئيات الدين الثابتة في مختلف ميادينها يساعد في تحقيق المقصود العملي من العلم والدين ، وتجاوز مشكلة المفارقة بين العلم والعمل التي قد يبتلى بها طلبة العلم قبل غيرهم.

٢- مقصد التعبّد والقربة. فالتعبد لله تعالى والتقرّب له هو أصل الغايات الشرعية كلّها ومطلب الرسالات كلّها، وكل أمر من أمور الدين شرع كلياً كان أم جزئيا، واجباً كان أم مستحباً، فإنما مقصده التعبّد لله به والتقرّب إليه سبحانه. يقول الشاطبي حول هذا المقصد: " إن الشرع إنما جاء بالتعبّد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود، ١- ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر، ٢]، وما أشبه ذلك من الآيات التي لاتكاد تحصى، كلها دالة على أن المقصود التعبّد لله" [3]، ويأتي الخطاب النبوي مؤكداً على خصوصية الجزئيات في مقصد التعبّد والقربة، كما في الحديث: (ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ

(١) صيد الخاطر، ص١٥٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) الموافقات، جـ١، ص٤١- ٤٢.

بالنوافل حتى أحبّه)[1]، وفي رواية أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، برويه عن ربّه: (إذا تقرّب العبد إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً) [2]يقول ابن رجب: " فقسم أولياءه المقربين قسمين: أحدهما: من تقرّب إليه بأداء الفرائض. والثاني: من تقرّب إليه بعد الفرائض بالنوافل"[3]. وبالتالي فكلّ جزئية من جزئيات الدين يفعلها العبد، لابدّ له أن يستصحب هذا المقصود الكبير؛ في أنه إنما يتعبّد الله بهذه الجزئية ويتقرّب إليه سبحانه، وبذلك يكبر منظوره لجزئيات الدين، ويتقوّى لديه محصولها وأثرها ودورها في تحقيقه لعبودية الله وتكميله لدائرة القربة إليه سبحانه.

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح رقم (٦٥٠٢).

(٢) المصدر السابق، كتاب التوحيد، ح رقم (٧٠٩٨).

(٣) جامع العلوم والحكم، ص٣٦٠.

المبحث الرابع: فقه الدعوة الى التديّن بالجزئيات وتعليمها.

يتناول هذا المبحث قضية التعامل الدعوي والتعليمي مع التديّن بالجزئيات باعتبار ذلك طريقاً لابدّ من سلوكه لإيصال الرسالة الدعوية المتعلقة بخطاب الشرع المتعلق بالجزئيات الدينية المشروعة. وتشكل هذه القضية محوراً أساسياً في فقه التديّن في باب الجزئيات لكونها مدخلاً رئيساً إلى الجانب التطبيقي ينبني عليه اتخاذ الموقف منها بصورة إيجابية أو سلبية. وقد وجد الباحث أن من المناسب تغطية فكرة هذا المبحث وهدفه من خلال المحاور الآتية:

أولاً: اتجاهات التديّن بالجزئيات في الخطاب الدعوي المعاصر:

بالنظر في الخطاب الدعوي المعاصر، والذي تمثله أطياف متعدّدة قد تكون أحزاباً أو جماعات أو مدارس أو علماء ودعاة أو كتّابا، فإنه يمكن رصد اتجاهات أربعةٍ تمثل الموقف من التديّن بالجزئيات. الاتجاه الأول: الإهمال والترك؛ حيث يلحظ في هذا الاتجاه موقفاً سلبياً من موضوع التديّن بالجزئيات، حيث لا يكتفي بتجاوزها في الخطاب الدعوي، بل واتخاذ موقف معارضٍ لها، نابذٍ لموضوعاتها، تاركٍ لجانب التديّن العملي بها، وقد يكون لهذا الاتجاه ما يبرر حالته من وجهة نظره، ولكن يبقى المعيار في اتخاذ الموقف العام من التديّن بالجزئيات، هو المعيار الشرعي والمتمثل في الخطاب النبوي الذي نجد فيه دعوة واضحة إلى التديّن بالجزئيات وبل وبالحث عليها في عموم الدعوة إلى التديّن، كما في قوله ﷺ: "من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه"[1] وفي قوله ﷺ: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي" [2]، وكلمة هدى وسنة تدخل في عمومها ومفهومها جانب الجزئيات الدينية.

وكما نجد في الخطاب النبوي دعوة واضحة إلى التديّن بالجزئيات، نجد كذلك تطبيقاً

(١) صحيح مسلم، كتاب العلم، ح رقم (٢٦٧٤).

(٢) سنن أبي داود، باب في لزوم السنة، ح رقم (٤٦٠٩).

واضحاً وممارسة عملية في حياة النبي ﷺ للجزئيات الدينية، التي أكثرها إنما شرع وعرف أصلاً بسبب عمل النبي ﷺ لها. وكذلك سار من بعده أصحابه رضوان الله عليهم. وشواهد الدراسة كلها تؤيد ذلك والأمثلة عامرة بها كتب السنّة. وعليه فإن الخطاب الدعوي الذي ينادي علناً أو ضمناً بتوجّه الإهمال والترك والتغافل الكلّي عن التديّن بالجزئيات المشروعة ويجعل هذا جزءاً من بنية خطابه الدعوي ومنظوراً مقصوداً فيه، لهو مجانب للشرعة التي عليها النهج النبوي نظرياً وتطبيقياً. والرجل الذي طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يأكل بيمينه[1]، فأبى ذلك واستمر يأكل بشماله متحجاً بأنه لا يستطيع، فقال له ﷺ: لا استطعت. فما رفعها إلى فيه. لتبقى حادثته هذه نذيراً للمتطاولين والمترفعين على هدي الإسلام في جزئيات الحياة والدين بحجة أنها "قشور" لا "جوهر" و "أصول".

والاتجاه الثاني الذي يمكن رصده يتمثل في: اتجاه التهوين والتسطيح. فهذا الاتجاه لا يدعو في خطابه الدعوي إلى نبذ موضوع الجزئيات وتركه كلياً، ولكن يلحظ في خطابه أنه يهوّن من شأن الجزئيات الدينية ويقلّل من مكانتها ويزهّد في الحاجة إلى العمل بها والتديّن بها، بحيث تبدو في خطابه مهمشة، ذات موقع سطحي غير مؤثر ولا فعّال. ولا شك أن محور هذا الخطاب يصبّ في قناة إضعاف شخصية "الجزئيات" وتكسيل النفوس عن الإقبال عليها. وأيّاً كانت تفسيرات هذا الاتجاه والتي قد تكون لأصلها حظ من النظر، ولكن تحويل قضيّة التديّن بالجزئيات إلى قضيّة "مدينة هامشية" لا يتوافق مع المنهجية النبوية التي جعلتها قضيّة "دائنة أصيلة"، وتحوّلها كذلك من قضيّة تحتاج إلى خطاب موجّه ومرشد إلى قضيّة تُسطّح وتهمش، ويصبح ذلك خطأ بارزاً ومعتمداً في الخطاب الدعوي، فإن ذلك ممّا لا ينسجم مع الرؤية الشرعية لموضوع التديّن بالجزئيات، حيث نجد اهتماماً واضحاً بها من قبل صاحب الرسالة ﷺ وحملتها من

(١) صحيح مسلم، باب آداب الطعام، ح رقم (٥٣٨٧).

أصحابه رضوان الله عليهم. يحدّث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أكثرت عليكم بالسواك)[1]، وحدّث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد)، يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأنّ الرجل يتقالّها، فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن)[2]، فلا داعي إلى السلبية والتهوين والنظرة القاصرة في فقه التديّن بالجزئيات، لأن هذا المنظور قد تكون له عواقب غير محمودة، وهي منهجية عملية لا يرتضيها رسول الله ﷺ، فقد دخل ﷺ على أعرابي يعوده ، فقال له: (لا بأس، طهور إن شاء الله) فقال: كلا ، بل هي حمّى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، فقال النبي ﷺ: (فنعم إذن)[3]. وفي موقف آخر مؤكّد لهذه الفكرة، يروي ابن المسيّب، عن أبيه: أن أباه جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: (ما اسمك)، قال: حزَن. قال: (أنت سهل)، قال: لا أغيّر اسماً سمانيه أبي، قال ابن المسيّب: فما زالت الحزونة فينا بعد[4].وكذلك كانت رؤية الصحابة وتعاملهم مع أصحاب الاتجاه الذي ينحى إلى التهوين من شأن الجزئيات الدينية المشروعة، فقد حدّث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: إذا استأذنت أحكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها فقال أحد بنيه: إذن والله أمنعها، فأقبل عليه ابن عمر فشتمه شتمة لم يشتمها أحداً قبله قط، ثم قال: أحدث عن رسولﷺ وتقول: إذن والله أمنعها[5]. وليس المراد من إيراد هذه الشواهد اتخاذ ما فيها من إجراءات عملية وتطبيقها على آخرين، بل أن توضع في إطار نقد الرؤية التسطيحية والنظرة الدونية

(١) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، ح رقم (٨٤٨).

(٢) المصدر السابق، كتاب فضائل القرآن، ح رقم (٤٧٢٦).

(٣) المصدر السابق، كتاب المرضى، ح رقم (٥٣٣٢).

(٤) المصدر السابق، كتاب الأدب، ح رقم (٥٨٣٦).

(٥) سنن الدارمي، ج،١، ص ٤٩١، ح رقم (٤٥٠).

لجزئيات الشرع باعتبارها خطاباً نبوياً له مكانته وموقعه الذي لابدّ من إحسان التعامل معه، والاعتزاز به.

وأمّا الاتجاه الثالث والذي له حظّه من الاهتمام بالتديّن بالجزئيات، فيتمثل في: اتجاه الإفراط والإغراق في الجزئيات. فمما يظهر لكل مهتم بواقع الخطاب الإسلامي المعاصر بمختلف مشاربه، أن هناك لوناً من الخطاب المتعلّق بجزئيات الدين وبفروعه يتسم بنوع من الإفراط والإغراق لدرجة قد تصل أحياناً لاستغراق جلّ الوعاء الخطابي زماناً ومكاناً وتنظيراً.

ويتمثّل الإفراط والإغراق في الجزئيات عند هذا الاتجاه بصور عدّة، منها:

أ- الإكثار والمبالغة في طرحها وإثارتها، حيث يردد أصحاب هذا الاتجاه هذه المسائل في المجالس وكثيراً ما يقرأون فيها وينقبون عنها[1].

ب- تتبع الغرائب منها، حيث يحرصون على السنن الغريبة والمجهولة عند الناس، والتعلّق بالغرائب مما جبلت عليه النفوس، فعندما يرون سنة غريبة يسارعون إلى المبادرة إليها والتمسك بها[2].

جـ- المبالغة في الأداء والتشدد بالعمل بما يصيب النفس بالإعياء ويؤثر سلباً على صورة التديّن في أذهان الآخرين، ولذلك لم يرتض الرسول ﷺ هذا المسلك، فيقول: (ليصلّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد)[3].

د- الموالاة والمعاداة والمحبّة والبغض على أساس الموقف من الجزئيات، والمبالغة في السؤال عنها، وهو مسلك مذموم شرعاً، يقول الشاطبي في نقد هذا المسلك وتوجيهه: " وقال ابن عباس (رضي الله عنهما)- في سؤال بني

(١) تطبيق السنة بين الغلّو والجفاء، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (١٠٩٩).

إسرائيل عن صفات البقرة- : لو ذبحوا بقرةً ما لأجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم. وهذا يبين أن سؤالهم لم يكن فيه فائدة "[1].

هـ- التوسع في التأليف بها والتكرار المستغني عنه بغيره، يقول الدكتور سلمان العودة: " وليس من العدل أن نكتب في موضوع جزئي ما يزيد على أربعة عشر بحثاً، في حين نترك الوقائع والنوازل الكبيرة في الأمة يسير الناس فيها على غير هدى" [2]، وقد يجمع الباحث في بعض المسائل الجزئية الواضحة لا الغامضة أكثر من عشرين عملاً مكتوباً بما لا يخفى أحدها على غيرها ومع ذلك تجد الإصرار في إعادة الكتابة بما لا طائل تحته.

ولا شك أنّ لهذا الاتجاه سلبيات واضحة تعود على الخطاب الدعوي ومردودهِ ومقاصدهِ وتأثيرهِ في بناء الشخصية النمطية في واقع المدعوين من المسلمين.

وأما الاتجاه الرابع في الخطاب الدعوي المعاصر في النظر إلى قضيّة التديّن بالجزئيات، فيتمثل في: اتجاه التوازن والاعتدال في التديّن بالجزئيات المشروعة، وهو الاتجاه الذي يقدّم خطابه الدعوي في باب الجزئيات ليس منعزلاً عن الكليات ولا مبتوراً عن أطره ومقاصده الشرعية، ولا مفصولاً عن قراءة فقه الواقع والأولويات، بل يجمع إليه كلّ ذلك، رغبةً في تحقيق نهج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى التديّن بالجزئيات في سياقاته المناسبة بما يحقّق مقصد القربة إلى الله تعالى بصورة من التوازن والاعتدال تنظيراً وتطبيقاً، بحيث يعطى كل ذي حقٍّ حقّه، ويُنيل منازل السائرين والسابقين.

ثانياً: العوامل السلبية المؤثرة في عملية التديّن بالجزئيات:

لقد حاق بعملية التديّن بالجزئيات عوامل أثرت فيها سلباً، مثلما حاق بعملية التديّن بكل مناحيها من العوامل التي أدّت في مراحل عديدة من الحياة الإسلامية إلى

(١) الموافقات، جـ١، ص ٣٢.

(٢) من أخلاق الداعية، ص٤٣.

إضعافها وتشويهها حيناً وتعطيلها وتمزيمها حينا آخر، وبخاصة في عصرنا الحاضر[1]، ولقد حاول الباحث الوقوف على جملة من العوامل التي أثرت سلباً في عملية التديّن بالجزئيات ومساراتها المختلفة، وذلك بقراءة طبيعة التديّن المعاصر وتنوعات الخطاب الدعوي وممارساته، ومن جملة هذه العوامل:

١- النظر الفقهي الصّرف إلى موضوع الجزئيات. حيث ركّزت بعض اتجاهات الخطاب الدعوي المعاصر على طرح قضيّة الجزئيات الدينية المشروعة في إطار الأحكام الشرعية الخمسة، وفي دائرتها تحديداً والتي تحوم بالجملة حول المستحبّات، ويتبع ذلك التساؤل المعروف والذي بدى ثقافة عامّة عند الناس: هل يأثم تاركها أم لا؟ وغالبا ما يتبرّع صاحب الخطاب الدعوى في دعوته الناس إلى المبادرة بتسجيل هذه اللوحة الإعلانية والدعاية لها بما يطبع في ذهنية العامّي أنها أمور يستوي فعلها وتركها. ولا شك أنّ بيان الحكم الشرعي أمر مطلوب، ولكن إذا احتيج إليه، وكان داعيه قوياً والتذكر به ملحاً؛ لتحقيق مقاصد علمية وشرعية مهمّة.وأمّا أن يتحوّل هذا إلى لغة خطاب مستديمة فلا شك أن ذلك سيؤثر سلبا على معنويات العاملين والراغبين من العوام ودوافعهم. ولم يكن منهج النبي ﷺ في دعوته إلى التديّن بالجزئيات يخضع لهذه المعادلة الفقهية المجّردة، ولم يكن عمل الصحابة وتدينهم بالجزئيات تتناوشه فكرة "الإثم وعدم الإثم" فيما بينهم — إلا في حدود ضيّقة استدعتها عملية التعليم والتطبيق أو حال السائل والمتعلّم- لأن المنهجية النبوية في التعامل مع الجزئيات الدينية كانت تصبّ باتجاه مقصد القربة إلى الله تعالى والاتباع للسنة النبوية وتحصيل المنازل والمكاسب الخيّرة. وتفرعت عن هذه المنهجية، منهجية الصحابة في التعامل مع الجزئيات حيث غلب عليهم أخذها على أنها وحي إلهي وسبيل شرعي سنّه لهم رسولهم ﷺ، فتدينوا بها في نطاق العبودية لله والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، دون أن ينال فقههم الشرعي الصرف لها ومعرفتهم بأحكامها الشرعية من عزيمتهم في الإقبال عليها

(١) للوقوف على هذه العوامل قديماً وحديثاً، راجع: (واقعنا المعاصر)، ص١١٣- ٢٣٠، و(التراجع الحضاري)، ص١٩٩- ٣٢٢.

وانصرافهم إلى التديّن بها.

٢- الظاهرة الفرقيّة وغزو العلمانية. فقد كان لانتشار ظاهرة الفرقة بين المسلمين قديماً وحديثاً[١] وقعه السلبي على مسار التديّن المجتمعي عموماً والعمل الديني لأهل العلم خصوصاً، إذ عملت الفرق على تشتيت العمل الديني وخلط أوراقه وتغيير أولوياته ومساراته، فبدلاً من أن يبقى جهد العلماء ويستمر في نشر التديّن الشمولي في أوساط المجتمع، اتجهت كثير من الجهود إلى التركيز على قضايا وافكار ومناقشة عديد من المواقف والمفاهيم كانت في أغلبها في الأصل خارج المجتمع وحاجاته الدينية، وهو أمر أثّر على مواقع الاهتمام بالتديّن بالجزئيات لحضور أولويات أخرى فرضتها أجندة الفرق ونزعاتها ومشاربها الفكرية والسياسية والتعبّدية. وكذلك الحال مع الغزو العلماني[٢] الحديث للأمّة من حيث محاولاته لطرد مظاهر التديّن من حياة الإنسان، وفرضيّته بضرورة مصادرة مراكز التديّن من شرايين المجتمع الأساسية، مما دفع إلى تغيّر معادلة العمل بالدين والدعوة إليه والاهتمام بقضايا الأصولية والفرعية، ففرضت طبيعة المواجهة أن تكون الخطوط الأمامية فيها الاهتمام بالكليات وتأخير دور الجزئيات لمواجهة التحدّيات التي تهدّد قضايا الحياة الإسلامية الكلّية. وما من شكٍّ أنّ هذه الترتيبات سواء في التعامل مع الظاهرة الفرقية أم في مواجهة تحديات العلمانية، وهي ترتيبات وخطوات معقولة وصحيحة، ولا اعتراض عليها، ولكن المقصود من ذلك الإشارة إليها كعوامل هي من خارج موضوعات الوحي أثرت من جهة ما على عملية "التديّن بالجزئيات"والدعوة إليها ونشرها في المجتمع في تلك المراحل التي كان للافتراق وللعلمنة سطوتهما في وسط المجتمع الإسلامي.

---

(١) راجع في ذلك: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، ص٨٩- ٢٧٨، والأهواء والفرق والبدع عبر تاريخ المسلمين، ص ٩٩- ١٩٠.

(٢) راجع في ذلك: العلمانية، ص٢٥- ١١٥.

٣- سوء تقدير الأولويات وعزل الجزئيات عن سياقاتها. وهذا العامل السلبي يتلخّص في أنّ المعتنين باتجاه التديّن بالجزئيات والداعيين إليه والراغبين فيه وقعوا في مغالطتين كان لهما الأثر السلبي على نظرة الناس إلى التديّن بالجزئيات وتعاملهم معها، وأولى هذه المغالطات تتمثل في سوء تقدير الأولويات، فيحدث انشغال بالجزئيات في مرحلة ما أو موقفٍ معين أو زمانٍ محدّد على حساب واجبات أكبر وأصول أهم ومتطلبات دعوية وواقعية تمسّ الحاجة إليها، ممّا يجعل النظرة إلى طرح التديّن بالجزئيات مقدّما عليها أمراً غير مستساغ ويجانب الصواب، وهو ما يدفع إلى اتخاذ موقف غير مشجع أو رافض أوغير متقبّل لها، وفي جميع الأحوال يقع التأثير السلبي على التصور السليم والتطبيق الصحيح لموضوع التدين بالجزئيات.وثاني هذه المغالطات تأتي في تقديم الجزئيات الدينية منتزعة من سياقاتها الخطابية الشرعية[1] التي تحمل دلالات مقاصدية وتعبّدية وصلات عقديّة وتشريعات أصولية وحكمية، ممّا يجعل رؤيتها محدودة ومقامها قاصر وفائدتها منحسرة. وكل هذه سلبيات تتراكم لتضعف عملية التديّن بالجزئيات.

٤- الجفاف في أسلوب الدعوة والسّلبية في الممارسة. وهذا العامل يتعلّق بالجانب التطبيقي لعملية التديّن بالجزئيات؛ من حيث الدعوة إليها ومن حيث ممارستها؛ ففي الدعوة إليها تعرض أحيانا بأسلوب دعوي مصاب بالجفاف وبنزعة المساءلة والمحاسبة، وأحيانا بلوثة الحكم على الآخر بالمخالفة الشرعية والجهل بالدّين، وأحيانا أخرى بغياب حكمة التدّرج والأولويات وفقه الاختلاف وآدابه ومعرفة التنوع المشروع وغير ذلك من التعاملات الدعوية غير السليمة التي تطيح بعملية التديّن بالجزئيات وتكرّه موضوعها وفكرتها للآخرين. وأما في منحى الممارسة، فتظهر فيه صورة المتلبس بالجزئيات الدينية كأنها كليات وواجبات تتصدّر أعماله الدينية كلها وتخضع لتدقيقات ومتابعات قد لا تحظى بها أصول وتحديات أخرى هي الأولى بذلك. إضافة إلى ظهور

(١) يمكن مراجعة ما تقدم الكلام عليه من أطر التديّن بالجزئيات ومقاصدها.

صورة الممارسة أحياناً في مواقف معينة لا تراعي طبيعة البيئة وفقه المحل الذي ظهرت فيه، مما يكوّن انطباعات سلبية في أذهان قوم آخرين ليسوا على ذلك من الدارية الشرعية التي تعينهم على إدراك تلك الحالات من التديّن بالجزئيات. ولا شك في أنّ كلّ ذلك من العوامل السلبية التي تؤثر في عملية التديّن بالجزئيات.

- الشخْصنة والخصْخصة والمبالغة النقدية. وهذه المؤثرات الثلاثة لها أهميتها في قضيّة التديّن بالجزئيات وملاحظتها ملاحظة دقيقة والوعي بها على درجة من الأهمية؛ فالمراد بالشخصنة: أن يصبح التديّن بالجزئيات والاهتمام بها "علم" على شخصية معينة؛ سواء أكانت أفراداً أو طائفة أم حزباً أم تجمعات فئوية دون غيرها، وهذا يجعل من قضيّة التديّن بالجزئيات "ماركة تجارية"، وقد تحتكر أحياناً، وهو أمر سيقود حتماً إلى حالة من الانقسام وحالات من ردات الفعل ونزعات التمايز بين الأشخاص والجماعات تأييدا باتجاه ورفضاً باتجاهات أخرى، وفي النهاية يكون المتأثر هو قضيّة التديّن بالجزئيات، فبدلاً من أن تستمر كما ولدت أصلاً موضوع تديّن مجتمعي عام، تنحسر لتصبح خصوصية فئوية سواء قصد لها أن تكون كذلك أم لم يقصد، لكن نزعة الشخصنة وإفرازاتها ستقود إلى ذلك. وأما المراد بالخصخصة: فبأن تضيّق دوائر الجزئيات الدينية الواسعة وميادينها الممتدّة بامتدادات طبيعة هذا الدين[1] وتنحسر لترى ضمن ميدان واحد أو ميدانين من ميادين الشعائر التعبدية فقط- وهذه آفة أصابت تصوّر الدين ومفاهيمه عموما[2] وخاصة في العصر الحديث بسبب الغزو الفكري وسطوة العلمانية الغربية على ديار المسلمين- ولذلك اختفت جزئيات دينية كثيرة ذات صلة بميادين العلم والمعرفة والحياة الاجتماعية والأخلاق الأسرية، بسبب تركيز الاهتمام على الجزئيات ذات الصلة بعدد من شعائر الإسلام التعبّدية، وضعت نوعاً

(١) راجع ما تقدم عرضه من ميادين التدّين بالجزئيات في المبحث الأول.

(٢) راجع: مفاهيم ينبغي أنْ تصحّح، ص٢٠- ١٠٥.

من التصور المفاهيمي القاصر حول شمولية التديّن بالجزئيات، وهو ما أثر سلبا على عملية تطبيقها وأخذها بجدية أكثر في واقع الحياة. وأما بالنسبة للمبالغة النقدية، فالمقصود بها: أن وقوع النقد السّلبي لمظاهر التديّن بالجزئيات والإكثار منه، والإجحاف في التهوين من أمرها وممّن يلتزمون بها، والسخرية أحياناً والنبذ أحياناً أخرى، بدلاً من النصح الديني المدروس والخالص لله تعالى والترشيد العلمي السليم والتعاون على تجاوز السلبيات وتصحيح المعوجّات، كلّ ذلك أدّى إلى إضعاف أصل " قضية التديّن بالجزئيات" وزعزعة مكانتها في النفوس، وتكوين حالة من الخجل حين الأخذ بها والعمل بها أو الدعوة إليها.وهذا كلّه من العوامل السلبية التي أثرت في عملية الدّين بالجزئيات بقصدٍ أو بغير قصد وبشكل مباشر أو غير مباشر.

ثالثاً: قواعد في الدعوة إلى التديّن بالجزئيات وتعليمها:

لقد جاء الإسلام بمنهجية منتظمة تحفظ لهذا الدين قيامه ووضوحه وتفعيله في أرض الواقع بما يلائم الطبيعة الإنسانية وينسجم مع الواقع وأبعاده ويحقق التوازن مع كل معطياته. وفقه هذه المنهجية وإدراك مقاصدها هو المعوّل عليه في تحقيق التديّن الإيجابي في حياة الفرد والأمة على السواء، ولذا فالعناية بها مطلب أساسي في تقديم الرؤى التطبيقية ذات الصلة بموضوع التديّن. وإيماناً من الباحث بهذه الفكرة، فقد سعى إلى البحث عن جانب في هذه المنهجية يعالج موضوع الدعوة إلى التديّن بالجزئيات وتعليمها، مضافاً ومتكاملا مع الجوانب الأخرى في تلك المنهجية والتي سبق الحديث عنها. ويتمثّل هذا الجانب المنهجي في استخلاص مجموعة من القواعد التي تشكل منطلقات أساسية لا بدّ من مراعاتها في عملية التديّن بالجزئيات دعوةً وتعليماً وبصورة تسهم في تقديم خطاب دعوي وتعليمي متوازن ومتسق مع المنهجية الإسلامية عموماً. ومن هذه القواعد الآتي:

١- الدعوة إلى الجزئيات دعوة إلى استكمال الإيمان: وهذه القاعدة أساسية في مكونات الخطاب الإسلامي الدعوي والتعليمي، إذ ينظر الداعية أثناء دعوته الناس إلى التديّن بالجزئيات إلى أنها دعوة إلى استكمال البناء الإيماني عندهم، ويدرك المعلّم كذلك أن تعليمه لأمور الدين الجزئية المشروعة هو تعليم للإيمان وتفقيه للشريعة وزيادة في البناء الإسلامي للمسلم وفي التزامه بالهدي النبوي المشروع. وتظهر أصول هذه القاعدة في فقه الإمام البخاري حينما استشهد في سياق تقريره لمسألة زيادة الإيمان ونقصانه بقول عمر بن عبد العزيز: (إنَّ للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان)[1]، حيث يتضح في هذا القول شموله للجزئيات الدينية ودعوته- رحمه الله- إليها، كما في قوله (وسنناً)، بعد تقديمه للأصول والواجبات، وهذا من عظيم فقهه الدعوي والعلمي والعقدي.

٢- الترغيب أساس الدعوة إلى التديّن بالجزئيات: وهذه القاعدة منسجمة مع طبيعة "الجزئيات الدينية" وموقعها بين سائر منظومة الدين، إذ أنها غالبا لا تدخل في دائرة الواجبات المتفق عليها والأصول والكليات المجمع عليها، لذا من فقه الداعية إليها والمعلّم لها أن يتخذ من أسلوب الترغيب قناة أساسية في توصيلها للمسلمين وحثّهم على التديّن بها، لكونه في الغالب لا يستطيع أن يتجاوز حدود الشرع وأحكامه الشرعية في فرض التديّن بها وترهيب الناس من الرغبة عنها وعدم العمل بها. لذا كان مسلك الترغيب هو الأجدى نفعاً والأحقّ طريقاً واتباعاً لمنهج النبيﷺ إذْ كان يخاطب بها القوم. روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة)، فشقّ ذلك عليهم وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: (الله الواحد الصمد ثلث القرآن)[2]، وفي موقف دعوي وتعليمي آخر يستخدم الرسول ﷺ أسلوب الترغيب والتشويق، إذ يقول: (ولو يعلمون ما في العتْمة والصبح

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان يزيد وينقص.

(٢) المصدر السابق، كتاب فضائل القرآن، ح رقم (٤٧٢٧).

لأتوهما ولو حبوا)[1]. وأسلوب الترغيب هذا أساسه الرفق، فلابدّ في عملية الدعوة إلى التديّن بالجزئيات وتعليمها من وضعها في قالب الرّفق توخيّا لتقبّلها وعدم النفور منها وتزييناً للعمل بها، فقد قالﷺ في هذه المنهجية: (إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلاّ شانه)[2]، ويلمس المتابع لواقع العمل الدعوي عموماً، أن ثمّة انزعاجاً من أساليب بعض الدّعاة في طريقة عرضهم للجزئيات الدينية ودعوة الناس إليها وتعليمهم إياها، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى الإعراض عنها والنفور حتىّ ممّن يعمل بها ويدعو إليها، وقد يحدث شيئاً من التنازع والاختلاف وعدم الائتلاف بين مكونات مجتمع الدعاة والمدعويين " ويثور بينهم الخلاف والنزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب"[3] ، وهذه ثمرة غير محبوبة للشارع ولا مرجوة من وراء تطبيقه وتتنافى مع غايات العلم والتعلم والدعوة إلى الله، فغايات الحكمة والأسلوب الرشيد يتعارض مع مقاصد الشرع من وراء التبليغ.

٣- الأخذ بمنهجية التعزيز الإيجابي: هذه القاعدة نفيسة، لأنها تعبّر عن المنهجية النبوية التربوية التي تسعى إلى الحفاظ على الموجود والارتقاء به وتحسينه وتكثيره بما يتلاءم مع مطالب الشرع ويتوازن مع متطلباته. ومحور هذه القاعدة يتمثل بالعمل على تعزيز تلك المواقف التي تظهر فيها حالات التديّن بالجزئيات المشروعة ودعم أصحابها وتزكية اتجاهاتهم ودفعهم إلى مزيد من العمل والإقبال على التعليم، ولذلك لّما ذكر للنبيﷺ رجل يكثر من قراءة سورة الإخلاص، وتقالّ عمله هذا بعضهم، كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم غير ذلك، حيث قام بتعزيزه بأن قال: " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن"[4]، وكذلك تمثّل الصحابة هذا الاتجاه، فابن عمر رضي الله عنهما، لما سمع حديث أبي هريرة في فضل اتباع الجنائز، كان موقفه أن قال: "لقد

(١) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٦٢٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم، ح رقم (٢٥٩٤).

(٣) الموافقات، جـ١، ص٣٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، ح رقم (٤٧٢٦).

فرطنا في قراريط كثيرة"[1]. وهذا الموقف الإيجابي يدعم منهجية العمل بالجزئيات لا أنه يضعفها، وابن عمر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، ما كانوا يتنكرون لجزئيات الدين لكونهم لم يسمعوا بها من قبل ، ولا لكونهم لم يعلموا بها، بل نظروا إليها نظرةً إيجابية تدعو إلى ممارستها قدر المستطاع، وعلى هذا النهج (التعزيز الإيجابي) كانت ملامح الخطاب الدّيني لعلماء الأمّة، يقول الخطيب البغدادي: "وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام، باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه"[2]. وقد تبدّت هذه المنهجية بعمومها في فكر الصحابة ومسلكهم وفي عهد النبوة من خلال حديث أبي ذرّ رضي الله عنه: أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنّبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدّثور بالأجور، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم، قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إنّ بكل تسبيحه صدقة، وكل تكبيرة صدقة...)[3]، وفي رواية: " تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كلّ صلاة ثلاثا وثلاثين". فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله[4]. قال ابن رجب: " وفي الحديث دليل على أنّ الصحابة رضي الله عنهم لشدّة حرصهم على الأعمال الصالحة وقوّة رغبتهم في الخير كانوا يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم"[5] ، وفي دعوة واضحة إلى أنّه من الفقه السديد المقرّر في النهج النبوي وما عليه الصحابة تعزيز المواقف الدينية التي يظهر فيها اتباع الشرع والعمل به سواء واجبات أم جزئيات، لأنّ كل ذلك من الخير الذي يجب الحرص عليه وتشجيع التنافس عليه لا التعامل السّلبي معه، ذلك أن التعامل السلبي معه عزوف

(١) المصدر السابق، كتاب الجنائز، ح رقم (١٣٢٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي والسامع، جـ١، ص٢١٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، ح رقم (٢٣٧٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (٨٤٣).

(٥) جامع العلوم والحكم، ص ٢٣٢.

العامل عن عمله لا متابعته والازدياد منه والتقرّب فيه إلى ربّه سبحانه وتعالى.

٤- تجاوز الخطاب الجدلي والسؤال الفرضي إلى المطلب التطبيقي. هذه القاعدة مطلب مهمّ فيما يتعلّق بمسائل الدين الفرعية تحديداً؛ لأنه يكثر حولها السؤال وتتوالد منها كثير من التفريعات الأمر الذي قد يقود إلى نزعة الجدل والمجادلة وفورة الافتراضات التي لا تنتهي والتي لا تحقق الهدف العملي المرجو من وراء مسائل الدين[١]، والواقع يشير قديماً وحديثا إلى أن كثيراً من جزئيات الدين تحوّلت إلى مرتع خصب للجدالات والسجالات والمنازعات التي استنزفت قدراً لا يستهان به من الطاقات والجهود والأقلام، وكان ذلك على حساب تعميق الاتجاه التطبيقي، وتشجيع عملية التديّن بالجزئيات وتقريب مسائل وتبسيطها للمسلمين. يقول الشاطبي: " إن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتمّ الوجوه وأكملها؛ فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك، وهو مشاهد في التجربة العادية، فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية، تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصراط المستقيم ويثور بينهم الخلاف"[٢].فلابدّ من النظر إلى الثمرة التكليفية المرجوة والتطلع إلى تحقيقها بأقرب الطرق، وهذا يحول دون اتخاذ مسرب الجدل الذي يضيّع مثل هذه الثمرات، يقول ابن رجب: " فإنّ التفقه في الدين والسؤال عن العلم إنما يحمد إذا كان للعمل لا للمراء والجدال" [٣]. وهذا الكلام يقود إلى تطبيق آخر لهذه القاعدة يتعلق بفقه السؤال عن الجزئيات، حيث تقتضي هذه القاعدة – اتساقاً مع المنهجية الإسلامية العامة- الالتزام بمدارك السؤال الإيجابي والإجابة الإيجابية كذلك فيما يتعلق بالجزئيات الدينية، والسؤال الإيجابي الذي يقع في دائرة تحصيل المعرفة الصحيحة

(١) تقدم الكلام في مبحث الدوافع والمقاصد عن المقصد العملي، فليراجع.

(٢) الموافقات، جـ١، ص ٣٤.

(٣) جامع العلوم والحكم، ص٩١.

لغاية التطبيق العملي السليم، والإجابة الإيجابية تلك التي تحقق ذلك بأوضح الطرق وأنفعها، وإذا حصل ذلك فلا داعي أن يتحوّل الأمر إلى عادة كما يلحظ في عديد من المواقف، حيث يسأل بعضهم العلماء عن ذات المسألة الجزئية أكثر من عشرين مرّة في مواقف مختلفة دون أن يعي ما الثمرة من وراء ذلك. وقد يبقى بعضهم لسنوات منشغلاً بعدد من المسائل الجزئية لا يملّ السؤال عنها والجدال فيها والمقارنات بين إجابات العلماء وإشغالهم بالرد على بعضهم، ولو كان الوعي بفقه السؤال الإيجابي حاضراً لديهم لوفّروا على أنفسهم وعلى العلماء كثيراً من الوقت والجهد ولأغلقوا أبوابا من النزاع، واكتفوا بالإجابة العلمية السديدة الواحدة ليفتحوا بها باباً من أبواب العمل والتديّن بهذه الجزئية، لينتقلوا بعد ذلك إلى غيره. وهكذا كان نهج الصحابة وفقهاء الأمة، تقول أم سلمة رضي الله عنها: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أن الله لا يستحيي من الحقّ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي ﷺ: (إذا رأت الماء)[1]. فالسؤال واقعي والإجابة علمية قريبة تحقق ثمرة عملية وتسد حاجة فعلية للسائل. يقول ابن رجب: "وهكذا كان حال أصحاب النبي ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة. فأما إن كانت همة السامع مصروفة عند سماع الأمر والنهي إلى فرض أمور قد تقع وقد لا تقع فإن هذا مما يدخل في النهي ويثبط عن الجدّ في متابعة الأمر. وقد سأل رجل ابن عمر(رضي الله عنهما) عن استلام الحجر[2]، فقال رأيت النبيﷺ يستلمه ويقبله، فقال له الرجل: أرأيت إن قبلت عنه؟ أرأيت إن زوحمت؟ فقال له ابن عمر: اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبّله"[3] وعلقّ ابن رجب على فقه ابن عمر رضي الله عنهما هذا، بقوله: " ومراد ابن

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، ح رقم (١٣٠).

(٢) المصدر السابق، كتاب الحج، ح رقم (١٦١١).

(٣) جامع العلوم والحكم، ص ٩١.

عمر أن لا يكون لك همّ إلا في الاقتداء بالنبيﷺ، ولا حاجة إلى فرض العجز عن ذلك أو تعسره قبل وقوعه فإنه يفتر العزم على التصميم عن المتابعة"[1]

وتطبيق هذه القاعدة وفقه السؤال الإيجابي ظاهر في القرآن الكريم، يقول الشاطبي: " فإنا رأينا الشارع يعرض عمّا لا يفيد عملاً مكلفاً به. ففي القرآن الكريم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة، ١٨٩]، فوقع الجواب بما يتعلّق به العمل، إعراضاً عما قصده السائل من السؤال عن الهلال لما يبدو في أوّل الشهر دقيقاً كالخيط ثم يمتلئ حتى يصير بدراً ثم يعود إلى حالته الأولى"[2].

ويتابع الشّاطبي إيراد أمثلة على ذلك من القرآن والسّنة بما يؤكد منهجية الإسلام في ضرورة تجاوز نزعات الجدال وإغراقات الفرضيات والاستفسارات التي تخرج بمطلب التديّن عن مساره.

٥- اعتبار الفرق بين التديّن الفردي والموقف الدعوي: يشير فقه هذه القاعدة إلى أهمية الوعي بالفرق بين موقفٍ خاص بالمسلم يظهر فيه تدينه والتزامه الذاتي الخاص به بالجزئيات الدينية وموقف دعوي عام يتعلّق بنقل هذا التديّن للآخرين ودعوتهم إليه. فالمسلم قد يلتزم بجزئيات دينية عديدة في حياته الخاصّة، وقد تسمح له ظروفه وأحواله الدينية بذلك، ولكن لا يعني هذا أن يتداخل هذا مع قضية الدعوة إليها، والتي تحكمها ظروف وتحيط بها مقدّمات مختلفة. وتظهر أهمية فقه هذه القاعدة من جهتين: الأولى: أنها تدفع إلى الالتزام بالجزئيات على الصعيد الفردي وتزيد من نسبته واحتماله، ولا تجعل من المعوّقات الدعوية أحياناً سبباً للحيلولة دون الالتزام بها. والجهة الثانية: أنها تنفي حجّة من يجعل من المواقف الدعوية غير الحكيمة لبعض الملتزمين بالجزئيات والداعيين إليها ذريعة إلى هجر التديّن بالجزئيات. فقد تكون هنالك

(١) المرجع السابق.

(٢) الموافقات، جـ١، ص٣٣- ٣٤.

مشكلات يتسبب بها بعض من يدعو إلى الجزئيات، وهذه بلا شك تقف معوّقاً عند بعضهم دون الالتزام بالجزئيات وقبول الدعوة إليها. ولكن ينبغي أيضاً على الطرف المدعو أن يفرق بين الحالتين؛ حالة الالتزام الفردي الخاص به والذي ينبغي أن يدين ربّه به، وبين الموقف الدعوي الذي تسبب في إشكالات معينة. وبالتالي نخرج بتصور مقتضاه أن التديّن الفردي بالجزئيات لا يجوز أنْ تحول دونه أنماط من المواقف الدعوية غير الموفقة، وأنه كذلك لا يلزم من تدين المسلم بالجزئيات أن يكون داعية إليها، وبخاصّة كما يفعل بعضهم، حيث يدعو إليها في أي مكان وفي أي زمان ولمختلف الأقوام، مما قد يوجد ردّات الفعل عكسية تجاه قضية التديّن بالجزئيات، وعليه فإنه إن كانت هناك معوّقات في مسار الدعوة إلى الجزئيات، فالأصل أنه لا معوّقات أمام التديّن الفردي بها. ولذلك كان كثير من الصحابة وكبار العلماء والعبّاد يعملون بالجزئيات الشرعية ويلزمون بها أنفسهم دون أن يجعلوا ذلك شرطاً لدعوة الآخرين، ولا قلّة عمل الآخرين أو سوء دعوتهم معيقا لأخذهم بها.

٦- اعتبار الفرق بين موقف العلماء وحظّ العوّام: وهذه القاعدة تسعى إلى توضيح الخطوط الفاصلة في قضية التديّن بالجزئيات والقيام بها بين موقف العلماء وموقف العوام، وذلك بهدف تحقيق وضعية مقبولة ومنهجية تطبيقية متزنة تؤدي دورها في تفعيل عملية التدين بالجزئيات وتعليمها والعمل بها. وتظهر القراءات المنهجية لمواقف العلماء من قضية التدين بالجزئيات من خلال النصوص النبوية ذات الصلة، بأنها تتمثل في ثلاثة مواقف: الأول: العمل بالجزئيات الدينية؛ فالأصل في العالم أن يكون المبادر إلى تطبيق الجزئيات الدينية النظرية في حياته إلى واقع عملي، لتتحقق فيه صفة العالم الرباني ولتكتمل عنده معالم القدوة والتديّن والاتباع للشرع وليجمع معالم الشخصية المسلمة الشمولية، لذلك كان النبيﷺ وهو المقدّم في العلم جامعاً للعمل بالجزئيات الدينية في حياته بل كانت هي مسلكه أصلاً في جميع ميادينها التعبدية والاجتماعية

وغيرها. وكل الأمثلة المذكورة في هذه الدراسة وغيرها كثير في كتب السنة، هي أدلة ممارسة النبيﷺ وعمله بهذه الجزئيات وكذلك كان شأن الصحابة رضوان الله عليهم والأئمة الأعلام، فهذا ما تفرضه طبيعة العلم وصفة العالم، وقد قال البخاري: " باب التيمّن في دخول المسجد وغيره". وذكر أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يبدأ برجله اليمنى فإذا خرج بدأ برجله اليسرى[1]، وأنس رضي الله عنه كان لا يردّ الطيب، ويذكر أن النبيﷺ كان لا يرد الطيب[2]. و أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه على جلالة قدره ومكانته العلمية، يأتي إلى النبي ﷺ ، فيقول له: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: "قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم"[3]. فأبو بكر رضي الله عنه لم يمنعه مقامه في الدين ورسوخه في العلم من الإقدام على السؤال عن أمر من جزئيات الدين، لا لحفظه بل للعمل به. فالعالم يدين ربّه بالعمل بالجزئيات الدينية المشروعة، ويكون القدوة فيها لكمال مقامه.

الثاني: تعليم الجزئيات الدينية، فمن وظائف أهل العلم الكثيرة، وظيفة التعليم للجزئيات، اقتداء لمنهج النبيﷺ في ذلك، فقد كان المعلم الأول في تعليم جزئيات الدين، ولذلك لا يجوز أن ينظر العالم إلى أن هذا صنيع الصغار وأن يربأ بنفسه عن القيام بمهمّة تعلمها إذا أمكنه ذلك ولم تحل دونه أولويات أو تقديرات وانشغالات أخرى، فهذا من مهمّة العالم المقتدي برسول الله ﷺ، تقول أم عطية رضي الله عنهما: قال النبيﷺ لهن في غسل ابنته: (ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها)[4]، وعن زياد

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التيمّن في دخول المسجد وغيره.

(٢) المصدر السابق، كتاب اللباس، ح رقم (٥٥٨٥).

(٣) المصدر السابق، كتاب الدعوات، ح رقم (٥٩٦٧).

(٤) المصدر السابق، كتاب الوضوء، ح رقم (١٦٥).

بن جبير قال: رأيت ابن عمر رضي الله عنهما: أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها. قال: ابعثها قياماً مقيدة، سنة محمدﷺ[1].

وما تناقله أهل العلم عن رسول الله ﷺ من أمور جزئية مشروعة، وما ألفوه من مؤلفات في هذا الميدان وما علموه في مجالس العلم منه، فإنّما هو استجابة للنهج النبوي في تعليم أمور الدين ومنها الجزئيات.

الثالث: تصحيح التدين بالجزئيات: وهو موقف مهم وضروري لأنه لا يقدر عليه إلا أهل العلم وبه تتحقق صورة التديّن الحق، وتمنع صورة التديّن المشوّه، وهذا من النهج النبوي في فقه التديّن عموماً ومنه الجزئيات، فلابدّ من تصحيح المقولات غير الصحيحة، فقد أثنى رجل على رجل عند النبيﷺ، فقال: (ويلك، قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك) مراراً، ثم قال: (من كان مادحاً أخاه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا)[2]، ولابدّ كذلك من نقد الأداء غير الحكيم، كما في نقد أحد الصحابة لإطالته الصلاة على الناس[3]، وكما في نقده لأداء الصحابة في عدم إكمال غسل الأقدام كما ينبغي[4]، وغير ذلك كثير. وقد فقه علماء الأمّة هذه المهمة وأهدافها، فعملوا على نقد المواقف التي تمارس فيها الجزئيات الدينية بشكل غير سليم، وتصحيح ما قد يحتفّ بها من انحرافات في التطبيق، وكلّ ذلك بهدف البناء لا الهدم والإلغاء؛ روى البخاري عن محمد بن المنكدر قال: صلّى جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه، وثيابه موضوعة على المشجب، قال له قائل: تصلي في إزار واحد، فقال: قال إنما صنعت ذلك ليراني أحمق مثلك، وأيّنا كان له ثوبان على عهد

(١) المصدر السابق، كتاب الحج، ح رقم(٥٩٦٧).

(٢) المصدر السابق، كتاب الشهادات، ح رقم (٢٥١٩).

(٣) المصدر السابق، كتاب العلم، ح رقم (٩٠).

(٤) المصدر السابق، ح رقم (٩٦).

النبيﷺ [1]، ومقامات ألنقد والتصحيح عديدة، ومن بين تلك تؤكد فكرة هذه المهمة ومكانتها ومنهجيتها، ما رواه البخاري في صحيحة، أنّ عليّا رضي الله عنه أتى على باب الرّحبة بماء فشرب قائماً، فقال: إن ناساً يكره أحدهم أن يشرب وهو قائم، وإني رأيت النبي ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت[2].

ولا شك أنّ هذا الموقف التصحيحي والنقد البنّاء المناط بأهل العلم من شأنه أن يحكم عملية التديّن بالجزئيات ويقيها من التشويه والغلو والابتداع وأن يحفظ التديّن بصورة متوافقة مع المنهج الإسلامي ومنبثقة منه سواء أصوله وكلياته أم فروعه وجزئياته.

وأما حظّ "العوام" من الجزئيات الدينية، فهو السعي قدر الإمكان إلى العمل بها وتطبيقها في حياتهم، والسؤال العلمي عنها، روى عن الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن بشر رضي الله عنه، قال: أتى النبي ﷺ رجلاً فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فباب نتمسك به جامع، قال: "لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله"[3]، وهذا يشير إلى سهولة باب التديّن بالجزئيات على عوام الناس والعمل بها والإكثار منها باعتبارها طريقاً للخير وللأجر. فلابدّ لعامّة المسلمين من الحرص على أن يعملوا بجزئيات الدين لكونها ميسورة عليهم ومقدور عليها في انشغالات حياتهم، وأن يدأبوا في السؤال عن النافع لهم والمحتاج إليه رغبة في العمل والتديّن، روى البخاريّ عن قتادة أنه قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبيﷺ، قال: نعم [4].

وهذه الرؤية المنهجية في وضع قاعدة تفرق بين موقف العلماء وموقف العوام من

---

(١) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٣٤٦).

(٢) المصدر السابق، كتاب الأشربة، ح رقم (٥٢٩٢).

(٣) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، ح رقم(٣٧٠٢)، وقال: حديث حسن.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، ح رقم (٥٩٠٨).

قضية التديّن بالجزئيات تفيد في منع التداخل بين واجب العوام ووظيفة العلماء، وفي منع حصول التشابه بين وظيفة العلماء وموقف العوام فلا يتطاول العوام على وظيفة العلماء التعليمية والدعوية ولا ينزل العلماء إلى موقف العوام، وهذا سيحول دون وقوع الخلل في فقه التديّن المتعلّق بالجزئيات ويسهم في تحقيق صورة إيجابية مقبولة من تدين العلماء والعوام بالجزئيات المشروع كل في نطاقه الطبيعي.

٧- الهدي النبوي لا الرأي الشخصي. تؤدي هذه القاعدة وظيفة مهمّة تتمثل في ضرورة الفصل بين الرأي الشخصي والهدي النبوي في فقه جزئية ما أو إثباتها أو اتخاذ موقف منها، أو في عملية تطبيقها، فيقدّم ما هو المشروع والثابت على غيره، وهذا مهمّ في ميدان الجزئيات لأنها تخضع أحياناً لنقاش أو ردّ أو نوع من الاستصغار عند بعض المسلمين وخاصّة في عملية التطبيق ومحلّها وكيفيتها بحجة أنها أمور جزئية، حيث يُحكم فيها هؤلاء وجهات نظرهم الشخصية، فينفون منها ما هو مثبت، أو يثبتون ما هو منفي. ويجد الباحث وضوح هذه القاعدة وتطبيقاتها فيما يتعلّق بالتديّن بالجزئيات الشرعية في المنهجية النبوية، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه: أنها حلبت لرسول الله ﷺ شاة داجن، وهي في دار أنس بن مالك، فأعطى رسول الله ﷺ القدح فشرب منه، حتى إذا نزع القدح من فيه، وعلى يساره أبو بكر، وعن يمينه أعرابي، فقال عمر، وخاف أن يعطيه الأعرابي: أعط أبا بكرٍ يا رسول الله عندك، فأعطاه الأعرابي الذي على يمينه، ثم قال: (الأيمن فالأيمن)[1]. فالقضيّة إذن، هدي مشروع ولا بدّ من اتباعه في الأمر الجزئي الصغير كما في الأمر الكلّي الكبير، لأن المردّ في ذلك كله إلى توقير الشرع وصاحبه، وتقديم أمره على رأي غيره، وبذلك يستقيم التديّن وينضبط ولا يخضع لتقلبات معينة قد يتشابه فيها الشرع مع العرف، ويتداخل فيه نظام الدين الواضح مع رؤى البشر المختلفة، ولذلك لابدّ من الحرص على التعلّم أولاً، وفقه التطبيق ثانياً،

(١) المصدر السابق، كتاب المساقاة، ح رقم (٢٢٢٥).

وجدّيته وانضباطه ثالثاً. وهذا هو فحوى هذه القاعدة التي طالما نبّه إليها أهل العلم قديماً وحديثاً في سائر أمور الدين ومنها جزئياته، تحقيقاً لمقصد الشارع من العمل بما هو مشروع.

٨- تقدير الأولويات أساس الدعوة إلى التديّن بالجزئيات: لا يختلف أهل العلم أن الأولويات[١] أحد الركائز المعتبرة في نظام الإسلام وهديه، وأحد أعمدة المنهجية الإسلامية النظرية والتطبيقية، وأحد المحاور الأصيلة في العملية الدعوية والتربوية. وهذا ظاهر في نطاق واسع من شريعتنا الإسلامية، حيث كانت البداءة بالعقائد أولاً قبل الشرائع وببناء الأصول قبل الفروع، وبتقديم الضروريات على الحاجيات، وبالعمل بالواجبات قبل المستحبات، وبترك المحرمات قبل المكروهات، وبالسعي للنجاة بالنفس قبل المال والأهل وغيرها كثير من شواهد الأولويات عموماً. فالأولويات روح تسري في كلّ مفاصل الدين ومواقف الحياة الإسلامية، وفكرتها معتبرة لدى كلّ عاقل. ولكنّ المهمّ هو التطبيق الصحيح للأولويات والفقه السديد للموقف الذي تتزاحم فيه الأولويات. لذا عبّر الباحث عن هذه القاعدة بـ" تقدير الأولويات". ولكي يتحقق التديّن بالجزئيات بصورة طبيعية ومقبولة لابدّ من التسديد والوعي الرشيد في ترتيب الأولويات، بعد أن يتمّ الجزم بأن هناك أولويات أصلاً. ويبدو للناظرأنّ قضيّة التديّن بالجزئيات هي من بين أكثر القضايا حاجة إلى مراعاة فقه الأولويات وذلك تبعاً لطبيعتها ومكانتها ورتبتها إذ تتقدّمها كثير من الأصول والكليات والواجبات وتزاحمها كثير من جوانب الإصلاح ومبادئ الأخلاق والدعوة ومقاصد الشرع. ولذلك فإن الزجّ بها دعوةً أو تعليماً أو تطبيقاً دون انتباه لحلقات أخرى تحيط بها وأولويات تتعلق بها قد يحدث أثراً مضاداً وثمرات فاسدة لم تكن متوقعة لفقدان حاسّة الاستشعار التي يولّدها تقدير الأولويات. ومن مواقف النبيﷺ في تقدير الأولويات التي ينبغي على أهل العلم والدعوة دراستها واستخراج مكنوناتها والإفادة منها، تنزيل الدين— كلّياته وجزئياته-

(١) للوقوف على الأولويات في الدعوة المعاصرة، راجع: (أولويات الحركة الإسلامية)، ص٣٨- ١٢٣.

على الواقع، موقف ترويه عائشة رضي الله عنها، حيث تقول: قال لي رسول الله ﷺ: (لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثمّ لبنيته على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام)[1]، وفي رواية(لولا أنّ قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض وجعلت له بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم)[2]. فالنبي ﷺ ما عدل عن مراده من الصنيع بالبيت – رغم أهميته ورغم مركز النبيﷺ القيادي في قومه- إلا لتقديره للأولويات ومراعاته لمقاصد الشرع ومرامي الفعل وغايات التعبّد بالأمر وآثاره السلبية من الإيجابية، وهذا ما ينبغي تدارسه وفقهه في الخطاب النبوي لتحقيق" الموقف التديّني" الأكثر سلامة ومراعاة لمقاصد الشرع. وهذا لا يكون إلا بتقدير الأولويات، ومن ذلك على سبيل المثال، إذا تزاحمت الفرائض في موقف ما مع المستحبات قُدمت الفرائض، وإذا تزاحمت جزئيات الدين العقدية مع جزئياته الحياتية قُدمت العقدية، لذا جاء الحديث بتقديم التقرّب إلى الله بالفرائض على التقرب إليه بالنوافل[3]، ولكن كما يقول الغزالي: قد "نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذّة، ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أول الوقت"[4]، وكذلك جاء الحديث بضرورة مراعاة مقصد التأليف في صلاة الجماعة كما في قولهﷺ: (لتسوّن صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم)[5].إنّ بعض الأئمة قد يدخل المسجد وتكون أولوية برنامجه كيف يلتزم المصلّون جميعاً ودون استثناء بجزئية من جزئيات الصلاة الأمر فيها واسع والتنوع فيها مشروع، ولكنه يريد تطبيق الراجح لديه أو المعلوم عنده، فيشغله هذا الأمر ويدعو إليه بأساليب تنفّر المصلين وتؤدي لاختلاف قلوبهم دون أن يراعي هذا الإمام ضرورة

(١) صحيح البخاري، كتاب الحج، ح رقم (١٥٠٨).

(٢) المصدر السابق، ح رقم (١٥٠٩).

(٣) سبق تخريج هذا الحديث .

(٤) إحياء علوم الدين، جـ٣، ص٤٠٠.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (٦٨٥).

الحرص على تأليف المصلين طالما في الأمر سعة ودون أن يكون للإصلاح الخُلقي والتواصل الاجتماعي والتربية الأسرية الأولوية في برنامجه الدعوي.

وبالمقابل، فإن الجزئية الدينية قد تكون في بعض المواقف ولو كانت كبيرة ومهمّة لها حقّ الأولوية ولابدّ من مراعاتها والعمل بها وبخاصة تلك التي تتعلق بتصحيح انحراف أو معالجة خلل قد يكون أحيانا في أمر الإيمان ولكنه بسيط فيما يبدو لغير العالم، أو في تعليم التطبيق الصحيح للعبادة، فقد حدّث أبو بشير الأنصاري رضي الله عنه أنّه كان في سفر فأرسل رسول الله ﷺ رسولاً: (أنْ لا يبقى في رقبة بعير قلادة من وتر – أو قلادة- إلا قطعت)[1] لتعلق الأمر بالمعتقد والتوكل على غير الله، ويحدّث كذلك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في سفر للصحابة أنهم كانوا إذا أشرفوا على واد هلّلوا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال لهم النبي ﷺ: " يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا عائبا إنه معكم إنه سميع قريب"[2]، ولا شك أن هذا هو فقه الأولويات، إنه لا يعني تقديم أمر على آخر في كلّ حال، ولا تأخير غيره مشروع على آخر على الدوام، إنما فقه العالم يتجلىّ في تقدير الأولوية في سياقها العلمي والزماني والمكاني والفئة المستهدفة ومستواها ليتحقق في الموقف الذي يتخذه إنزال الحكم الشرعي وتطبيق أمر الدين كلياً كان أم جزئياً بصورة تؤدي غرضه وتحقق مقاصد الشريعة من ورائه، وهذا لا يكون إلا باجتماع معادلة أطرافها: الفقه السديد للنص الشرعي والفهم الصحيح للواقع والوعي السليم لطبيعة المدعوين ومراتب سلّم الحاجات لديهم، فقد يكون الأول في مكانٍ ما هو الثاني في مكان آخر، وقد يكون الثالث لفئة من المدعوين هو الأول لفئة غيرها. وهذا الكلام يقود إلى قاعدة تتفرع من القاعدة السابقة وهي:

(١) المصدر السابق، كتاب الجهاد، ح رقم (٢٨٤٣).

(٢) المصدر السابق، ح رقم (٢٨٣٠).

٩- أولويات الواقع لا ثقافة الأولويات: وفكرة هذه القاعدة مقتبسة من الكلام المتقدّم، والمراد بها إذا ما أردنا مراعاة مبدأ الأولويات في التديّن بالجزئيات، فلابد أن تكون تلك الأولويات هي واقع ملموس ومعيش فعلاً، لا أنْ تكون الأولويات ثقافة ذهنية كلما طرح موضوع التديّن بالجزئيات في موقف ما، قيل هناك أولويات. وفعلا قد يكون هناك أولويات ولكنها في مكان آخر وموقف آخر، على مستوى الأمة مثلاً، ولكن الموقف الذي يراد فيه تعليم الجزئيات أو الدعوة إليها أو التديّن الفردي بها لا تتزاحم فيه كلّيات وجزئيات، فأمره واضح وقريب والفئة المدعوّة لا تتراكم لديها كليات ولا تشغلها قضايا أمة، بل هي مستعدّة للعمل بكل ما تتعلّمه من أمور الدين ومهيأة لذلك. ففي مثل هذه الحالة لا يجوز أن نجعل من فكرة الأولويات سيفاً مسلطاً ومفترضاً على الجزئيات الدينية، فهذا أصلاً من المخالفة لفقه الأولويات.

والمراد هنا، وتحقيقا للتعامل مع "أولويات الواقع" و "أولويات الموقف المعيّن" تحديداً أن نميّز بين جعل الأولويات حجّة يحتج بها في كلّ حين لكونها أصبحت ثقافة في الخبرة الإسلامية الحديثة لعوامل كثيرة لها ارتباطات بتصنيف طبيعة واقع الأمة والمرحلة العامة التي يمرّ بها المسلمون – إلى حدّ جعلها بعضهم كالعهد المكّي- واستصحاب الخطاب الدعوي الإسلامي في مراحل معينة متقدّمة كانت طبيعته تتطلب التركيز على اتجاهات معينة وأولويات خاصة لابدّ منها، ولكن لا يعني ذلك استمرار هذا الخطاب في الذاكرة ليتحوّل إلى ثقافة، تلقي بظلالها في كل حين. وعليه فلابدّ من التنبه لهذا الخط الفاصل الدقيق الذي يحفظ لكل واقع خصوصيته ويقود إلى تعامل سليم مع الأفكار وتداعياتها ومع كليات الدين وجزئياته وحاجات المسلمين الدينية وإمكاناتهم التطبيقية.

ومن فوائد الوعي بهذه القاعدة أنها لا تجعل كبير مصداقية لمن يترك التديّن والعمل بكثير من الجزئيات متذرعاً بوجود أولويات، ولكن هذه الأولويات لا تعينه هو تحديداً

وليست مسيطرةً عليه لدرجة أنه لا يجد وقتاً ليتعبّد الله بها، بل تجده منشغلاً بجزئيات كثيرة بينية وربما يصرف كثيراً من الوقت بسببها.والباحث مضطر إلى هذا النوع من التحليل، لأنه وجد كما أنّ هناك من هو مغرق بالجزئيات ومتوسّع فيها لدرجة الإشباع، مهملاً فكرة "الأولويات"، هناك أيضاً من طرح الجزئيات لدرجة أنها أصبحت جزءاً من منهجه وتفكيره في كل مراحله وفي جميع مواقفه وخطاباته الدعوية، فلم يتعامل مع "أولويات الواقع" بل مع "ثقافة الأولويات" وإلاّ فكثير من الناس لا ضير عليه أنْ يتديّن بالجزئيات، وكثير من أهل العلم والدعاة لديهم متسع في وقتهم لممارسة التديّن بالجزئيات في مختلف ميادينه، فلا يضيق وقت أحدهم إن حافظ على الأذكار، ولا تختل عبادته إن كمّلها بما هو مسنون ومشروع، ولا يضيره أن تظهر في حياته عشرات من مظاهر التديّن الاجتماعي والأسري والأخلاقي بالجزئيات المشروعة، فالتبسم في وجه الناس، والدخول باليمين، وإلقاء السلام، ومدّ يد العون للآخرين، وإحسان اختيار الاسم للأبناء، وإحياء السنن النبوية البينية وآداب الطعام والضيافة والتواصل مع الآخرين، وغير ذلك كثير ممّا لا يجد فيه المسلم حرجاً في تطبيقها والتديّن بها، ولا يجد مزاحمةً شديدة في وقته وواجباته فيها الأخذ بها، بل تسير معها برفق وسلاسة. وليست هذه الأمثلة مقصودة لذاتها إنما هي للتدليل على فكرة القاعدة من أنه لابدّ من إدراك أن هناك أولويات فعلاً وتمس الواقع حقيقة وتتزاحم فيما بينها على أرض الواقع وفي النفوس لتوضع الأمور في مواضعها فتؤتي أكلها.

١٠- درء التعارض بين التديّن بالجزئيات والكليات (التكامل لا التدافع). لعلّ هذه القاعدة - والتي تختتم بها مجموعة القواعد المتقدّمة -- تشكل حلاّ وتقدّم علاجاً لإشكاليات التديّن بالجزئيات الدينية والدعوة إليها وتعليمها، وتحول دون بروز حالة الصراع بين أمور الدين: جزئياته وكلياته، أصوله وفروعه أو افتراضها بشكل مفتعل وغير واقعي. وقد كان لفكرة الأولويات المهمة والضرورية في تطبيقات الدين وأصول

الدعوة إلى أموره الكلية والجزئية، الأثر في تصوّر بعضهم أن هناك تدافعاً بين محمود التديّن بالجزئيات ومحور التديّن بالكليات، عزّز هذا الممارسات والمواقف المغرقة والمتشددة في موضوع الجزئيات وغيرها من العوامل السلبية التي سبق الحديث عنها، مما أوصل المعادلة إلى فرض حالة من الصراع والتناقض بين الجزئيات والكليات ووضعهما على طرفي نقيض، يدفع كلّ منهما الآخر.

والمتمعن في الخطاب النبوي المتصل بالجزئيات الدينية، لا يجد فيه سيادة نمطية الصراع والتدافع بين التديّن بالجزئيات والتديّن بالكلّيات، نعم هناك أولويات لابدّ من وجودها، ولكنها ليست منهجاً ثابتاً في نمطية معينة، بل تحكمه عوامل عديدة منها الواقع وفقه النص والمقاصد وفئة المخاطبين، وهذه الأولويات لا تفهم بحال أنها سبب في التناقض والتدافع بين ما يجب تقديمه وما يجب تأخيره، بل هي عملية ترتيب وتنفيذ للكل ولكن ضمن برنامج زمني معين. ولذلك يجد الباحث في الخطاب النبوي أنه يحقق التكامل بين التديّن بالكلّيات والتديّن بالجزئيات لا التدافع بينهما.أي أنه يأخذ بهذا ويأخذ بهذا، وهذه المنهجية الأصيلة في الخطاب النبوي تظهر خطوطها وتطبيقاتها في كثير من المواقف الدعوية والتعليمية للنبيﷺ، كما في الحديث: (وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه)[1]، فجمع بين الفرائض والنوافل دون افتراض التناقض بينهما؛ إمّا هذا وإما هذا، بل هذا وهذا، ولكن بترتيب بينهما يحقق التكامل ويدرأ التعارض، وهذا ما نجده في حديثين للنبيﷺ؛ أحدهما: قال فيه: " لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة"[2] والثاني: " لولا أن أشقّ على أمتي ما قعدت خلف سرية"[3]. فهنا جزئيات وهنا

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم(٨٨٧).

(٣) المصدر السابق، كتاب الإيمان، ح رقم (٣٦).

كليات، وكلاهما يحظى بمستوى مهم من خطابهﷺ .وكذلك في قيامه بأحد أركان الدين لم يمنعه أن يعالج إحدى جزئياته، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيﷺ مرّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان، ربط يده إلى إنسان، بسير أو بخيط أو بشيء غير ذلك، فقطعه النبيﷺ بيده، ثم قال: (قده بيده)[1].

ويكون في موقف دعوي كبير لم يمنعه ذلك من تعليم جزئيات الدين، فقد قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: جاء رجل والنبيﷺ يخطب الناس يوم الجمعة، فقال: (أصليت يا فلان)، قال لا، قال: (قم فاركع ركعتين)[2].

إنّ هذه النظرة التكاملية تتيح تطبيقات مرنة لأمور الدين وتدفع حالات الشدّ والتضارب بين الأطراف الداعية إلى الدين أو الأطراف المتدينة بأمور الدين، حيث يعذر بعضهم بعضاً بما لكل منهم من أولويات، ويتكاملون فيما بينهم فيما ينصبّ عليه اهتمام بعضهم دون بعض، دون أن توجد بينهم حالات من الصراع والتباغض والعداء، وفي الوقت نفسه تزول نظرة التصادم بين التديّن بالجزئيات والتديّن بالكليات، وأنّ إحداهما تلغي الأخرى وأنه لا يمكن الجمع بينهما. وعليه فإن العمل بهذه القاعدة يؤدي إلى التآلف والإعذار والتكامل والتوازن. وهو ما يميّز فقه التديّن المسترشد بمنهجية الكتاب والسنة.

* * *

(١) المصدر السابق، كتاب الحج، ح رقم (١٥٤١).

(٢) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٨٨٨).

المبحث الخامس: ثمرات التديّن بالجزئيات وأبعاده التربوية:

لم يشرع لنا شرع لا في الكتاب ولا في السنة إلا وفيه مصلحة وله عوائد وثمرات، سواء أكان هذا الشرع فعلاً أم تركاً، أموراً كليةً أم أموراً جزئية، ذلك أنها تصدر عن العليم الحكيم، الذي يتصف كل فعل له أو قول بالحكمة المبنية على العلم المحيط، وعليه فلا بدّ أن ينظر إلى كلّ أمر مشروع على هذا الأساس، ومنه الجزئيات المشروعة، ليكون ذلك سبباً في تقديرها والقناعة بما تنطوي عليه من خير ومنافع ينبغي السّعي لتحصيلها. وقد رأى الباحث- تكملة لعناصر هذه الدراسة وجوانبها- أن تكون هناك وقفة علمية تستجلى من خلالها أهم الثمرات المتحصلة من التديّن بالجزئيات، وأهم ما تنطوي عليه أيضاً من أبعاد تربوية، يكون لها الأثر في إحياء شريعة التديّن بالجزئيات وفقاً للمنهجية الإسلامية المتضمنة في الخطاب النبوي المتعلّق بالجزئيات الدينية. وتبين للباحث في هذه الوقفة العلمية أنّ للتدين بالجزئيات الثمرات والأبعاد التربوية الآتية:

أولاً: تزكية النفس:

فمن الأمور التربوية المعتبرة في المنهج الإسلامي لبناء الذات المؤمنة وتكوين الشخصية المسلمة: تزكية النفس باطناً وظاهراً. وقد كان هذا أحد المهام العملية الرئيسة لدعوته ﷺ، كما قال الله تعالى في ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة، ٢]. وقد حدد الخطاب النبوي طريقين أساسيين تعملان على تحقيق هذه التزكية، إحداهما: العمل بالفرائض والواجبات الدينية، وثانيهما: العمل بالنوافل والاستزادة منها قدر الإمكان؛ أي أنه جعل كليات الدين وجزئيات سبيلاً إلى ذلك.وهذا كما في الحديث: (وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش

بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينّه ولئن استعاذني لأعيذنه)[1].

فهو حديث واضح في تضمنه منهجية إسلامية واضحة تشير إلى كون التديّن بالجزئيات المشروعة والمداومة عليها والاستكثار منها هو سبيل موصل إلى تزكية العبد لنفسه وتطهيرها والتدرج بها في منازل السالكين لتصل إلى مرحلة من الكمال والطهارة والصفاء تستشعر بها النفس المؤمنة تأييد الله تعالى لها في كل حركة وسكنة، ولا شك أن ذلك لا يعني أن يتمّ التديّن بالجزئيات بمعزل عن التديّن بالكليات أو دون القيام بالفرائض والواجبات، فلم يقل بذلك أحد من أهل العلم، بل المراد "أنه إذا أدّى (المسلم) الفرائض وداوم على إتيان النوافل أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى"[2]. وعليه فالمقرر في منهجية التربية النبوية، أنه لابدّ من الحرص على أداء جزئيات الدين وأن ذلك طريق إلى تزكية النفس والتي بدورها ترفع من منزلة العبد عند الله تعالى وتحقق بناء متميزاً للشخصية المؤمنة.

وتزكية النفس لا تتحقق بمجرد الفقه النظري، بل لا بدّ من برنامج عملي[3] يلتزم به على أساسٍ من التكامل بين أمور الدين وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، والفهم العلمي السديد لمقوّمات هذه التزكية وأهدافها وموادّ عملها، والتي منها جزئيات الدين، إنها ليست حركات ثانوية أو مقولات مكررة على اللسان خارجية، بل إنها في مجموعها تصل الباطن بالظاهر، ويدل تدين الظاهر بها على سلامة الباطن، ويقود صلاح الباطن إلى العمل الظاهر بها، يقول ابن رجب: " ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح الجوارح، فإذا كان القلب صالحاً ليس فيه إلا إرادة الله وإرادة ما يريده لم تنبعث الجوارح إلا فيما يريده الله، فسارعت إلى ما فيه رضاه وكفت عمّا يكرهه"[4]. وبذلك

(١) المصدر السابق، كتاب الرقاق، ح رقم (٦٥٠٢).

(٢) فتح الباري، جـ١٣، ص١٤٥.

(٣) النبيّ المربي، ص٧٦.

(٤) جامع العلوم والحكم، ص٧٥.

يصبح التديّن بالجزئيات عبادة تؤدي إلى " الصلة الدائمة بين العبد وربّه، وتصبح هي (من) التربية الدائمة للروح"[1]، وفي تكرار العبد لأذكار الصباح والمساء وللأدعية النبوية وللآداب الأسرية والاجتماعية وللأعمال التطوعية وغيرها من محاور الجزئيات تطبيق تربوي يقود إلى هذا اللون من التعبّد الذي يبني الصّلة بالله ويطهّر النفس ويزكيها ويربط حياة العبد كلها في حركاتها الصغيرة والكبيرة بالله تعالى. ومن الأمثلة التطبيقية التي تشهد لهذا المسار التربوي، حديث جابر رضي الله عنه، الذي يرويه عن النبيﷺ، قال: (إذا استنجح الليل- أو كان جنح الليل- فكفوا صبياتكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلوهم، وأغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخمّر إناءك واذكر اسم الله)[2]، وهذا لون من التعبّد الأسري لله تعالى وأمثلته زاخرة من الأذكار المنزلية والأذكار الخاصة في الحياة الزوجية ومع الأولاد ودخول المنزل والخروج منه والتهجّد والتعويذات للأبناء وغيرها كثير من جزئيات الدين التي تبني الحياة بالتعبّد وتزكي النفس والأسرة وتصلهم بالله تعالى.

ثانياً: البناء النفسي والصّحي:

يسهم التديّن بالجزئيات في البناء النفسي والصحي للشخصية المسلمة، وهي ثمرة غاية في الأهمية وخاصّة في وقتنا هذا الذي تكثر فيه المواقف النفسية الضاغطة على الذات الإنسانية، ويجد الباحث تطبيقات عدّة لهذا المسار، منها باب الأدعية[3]، والذي جزء منه غير يسير، يركز على الجانب النفسي والصحي: وقايةً وتوجيهاً وعلاجاً، من الجانب الوقائي وخاصة فيما يتعلق بمرحلة الطفولة الحساسة تعويذ الأطفال بكلمات الله

(١) منهج التربية الإسلامية، ص٦٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ح رقم (٣١٠٦).

(٣) للتوسع حول الجوانب التربوية والنفسية في الأدعية عموماً، راجع: (المضامين التربوية للدعاء) ص٢٦- ٨٧.

التامات من كل شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة[1]، واستعمال السّواك، فهو مطهرة للفم مرضاة للرب[2]، والتعوّذ بالله من العجز والكسل[3]، ومن الجانب التوجيهي، قولهﷺ: (لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليل وحده)[4]، ومن الجانب العلاجي، الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حال انفعال الغضب، يقول سليمان بن صرد: كنت جالساً مع النبيﷺ ورجلان يستبّان، فأحدهما أحمرّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبيﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان، ذهب عنه ما يجد)[5]. وكان الرسول ﷺ إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده[6].

وتكثر أمثلة هذا الجانب في كتب الطب والرقاق والأدعية وغيرها في الصحيحين. والمقصود من هذا العرض التأكيد على أن التديّن بالجزئيات المشروعة يحقق في بعض ميادينه ومساراته ثمرات ومنافع ويترك آثاراً تسهم في البناء النفسي والصّحي للذات المسلمة قد لا يمكن تحقيقها بدون الأخذ بها، وقد يترك تركها آثاراً عكسية قد تقود إلى اضطرابات نفسية وأمراض صحّية، ولنتأمل الفعل أو الترك لقراءة آية الكرسي عند النوم، حيث ثبت أن من يقرأها، فإنه لن يزال عليه حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح[7]، ولنتأمّل كذلك باب التمنّي والتفاؤل والتشاؤم، وكيف أنه يجعل الذات تعيش في بحر من الأوهام أو في نفق ضيق من الظلام، يأتي الشرع لينهى عن تمنّي الموت

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، ح رقم (٣١٩١).

(٢) المصدر السابق، كتاب الصوم باب(٢٧): السّواك الرطب واليابس للصائم.

(٣) المصدر السابق، كتاب الجهاد، ح رقم (٢٦٦٨).

(٤) المصدر السابق، ح رقم (٢٨٣٦).

(٥) المصدر السابق، كتاب بدء الخلق، ح رقم (٣١٠٨).

(٦) المصدر السابق، كتاب المغازي، ح رقم (٤١٧٥).

(٧) المصدر السابق، كتاب بدء الخلق، ح رقم (٣١٠١)

وفتح باب "لو" ويدعو إلى الفأل الحسن[1]، ليضبط بذلك الجانب النفسي الذي كثيراً ما تشطح فيه النّفس بعيداً، فيؤثر على السّلوك والمواقف، بل والجانب الصحي. وإذا ما أردنا أن نلحظ أثر التهاون بالجزئيات وأخذها بجدّية عملاً أو تركاً، فلنتدبر حديث ابن المسيّب، عن أبيه: أن أباه جاء إلى النبيﷺ، فقال: (ما اسمك)، قال: حزن، قال: (أنت سهل)، قال: لا أغير اسماً سمانيه أبي، قال ابن المسيب: فما زالت تلك الحزونة فينا بعد[2]. ولذا فإنه إذا ما تمّ تصحيح المنطلق الذي ينطلق منه العبد في التديّن بالجزئيات، والذي يتمثل في تحقيق التعبّد لله تعالى في كل ما شرع والاتباع للرسالة في كل ما فصّلت – وعلى قدر المستطاع- رجاء مرضاة الله تعالى وتحصيل بركات التديّن والانتفاع بمعطياتها الدنيوية والأخروية، فإن هذا سيدفع باتجاه الالتزام بجزئيات الدين والتديّن بها تكاملاً وتناسقاً مع واجبات الدين وكلياتها الأخرى، دون استنقاص قدرٍ لأيٍّ منها ولا استقلال مردود ونفع من وراء التديّن بها.

ثالثاً: تدعيم دور المربّي والمعلّم في العملية التعليمية:

ينطوي الخطاب النبوي المتعلق بالجزئيات الدينية على توجيهات مهمّة ذات صلة بالعملية التعليمية: تاثيراً ومضموناً وترشيداً وإنجاحاً، وذلك من زوايا متعددة، منها: موقف المعلّم (المربّي) من تعليم الجزئيات الدينية، حيث يتوجّب على المعلم ابتداء أن تكون لديه القناعة بأهمية الجزئيات المشروعة في ديننا، ثمّ يعمل على تعظيم شأنها لدى طلاّبه – بتوازن وفقه- باعتبارها هدياً نبوياً ووحي إلهياً، ويسعى إلى إزالة النظرة الدونية أو نظرة الإهمال إن وجدت، ويغرس في نفوسهم أنها محطّ أنظار الله واهتمامه، وذلك مقررّ في الخطاب النبوي، كما في قولهﷺ: "بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له فغفر له"[3]، فعندما يدرك المتعلّم أن فعلاً

(١) راجع: المصدر السابق، كتاب التمّني.

(٢) المصدر السابق، كتاب الأدب، ح رقم (٥٨٣٦).

(٣) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (٦٢٤).

كهذا كان محطّ اهتمام ألله ورواية رسول الله ﷺ ، وأن جزاءه المغفرة بفضل شرح المعلم له- ولأمثلة أخرى- فإنّ ذلك سيقود إلى عمل فاضل يقوم به المربي والمعلم في نفسية تلميذه بأن يحبّب إليه عمل الخيرات وخاصّة تلك التي تقع في مجال التطوّع والإحسان تحقيقاً لمرضاة الله.

وموقف المربّي أو المعلّم لا يقف في العملية التعليمية عند تنمية قيمة التديّن بالجزئيات لدى التلاميذ ، بل ينضاف إليه القيام بتعليمها، وترشيدها. فتعليمه الجزئيات الدينية، هو تطبيق واقتداء بالمنهج التعليمي النبوي الشمولي، يقول جابر رضي الله عنهما: " كان رسول اللهﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن"[1]. ولابد أن يراعي المعلّم في تعلمه الجزئيات كلَّ عامل من شأنه أن ينجح عملية تعليم الجزئيات والتديّن بها، من وضوح في الصوت ووضوح في الإجابة وتخيّر للزمان والمكان المناسبين ومراعاة للظروف النفسية والمستويات التعليمية، والنقل الدقيق وبيان الوجه الصحيح للتدين بالجزئيات، والنظرة التحليلية في تبويبات البخاري لكتاب العلم[2]، تظهر فيه مثل هذه المؤثرات الإيجابية في العملية التعليمية لجزئيات الدين وواجباته وغيرها كثير. وفيما نقله الصحابة رضوان الله عليه من الهدي النبوي في الجزئيات الدينية وتدقيقهم وتوضيحهم لصفتها[3] دليل على أهمية.

وأما واجب المعلّم في ترشيد تدين التلاميذ بالجزئيات؛ فرأس الأمر فيه إحداث توازن لديهم بين أداء الفرائض والجزئيات وتوسيع مفهومها لديهم لتشمل ميادين الحياة المختلفة، والعمل على ربطها بالواقع والحاجة، فلا يسمح لأن تكون ميدان تساؤلات فضفاضة وفرضيّات لا تنتهي وإغراق لا حدود له وجدل ونزاع يوغر الصدور ويضيع الأوقات.ولأجل أن تؤتي العملية التعليمية التي تراعي ما تقدّم من توجيهات لابدّ أن

(١) المصدر السابق، كتاب الصلاة، ح رقم (١١٦٢).

(٢) راجع، كتاب العلم من صحيح البخاري.

(٣) راجع في ذلك على سبيل المثال ما ورد في كتاب الصلاة وكتاب الآداب من الصحيحين.

يعتمد المربي أسلوب الترغيب والتشجيع وبثّ روح المنافسة بين تلامذته.وأن يتخذ من الإجراءات العملية ما من شأنه يعزز العمل بالجزئيات الدينية لديهم ويثير اهتمامهم المعتدل بها، كإجراء مسابقات وتقديم جوائز ومتابعتهم عملياً والقيام ببعض التطبيقات الميدانية، لتعليم ما هو جديد ولتصحيح ما قد يكون من ممارسات غير سليمة لبعض جزئيات الدين، ومن الأمثلة التي تزخر بها السنة النبوية حول هذه الفكرة قول عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكل ممّا يليك"[1]. فهذه المنهجية النبوية في تعليم الجزئيات، استغلال للحدث وتلطّف بالأسلوب، وترتيب ووضوح في التعليم، وهو ما من شأنه أن يحدث استحساناً عند المخاطب صغيراً كان أم كبيراً، متعلماً كان أم عامّياً، ولذلك عقّب عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه راوي الحديث وأحد أطراف الموقف التعليمي بقوله: " فما زالت تلك طعمتي بعد" [2]: أي أن العملية التعليمية كانت ناجحة وآتت ثمارها لتحقق عناصر النجاح فيها، وهذا ما ينبغي على المربيّن والمعلمين مراعاته في سبيل تحقيق تدين بالجزئيات المشروعة مبناه على العلم والحكمة، مضموناً وأسلوباً.

ومن الأهداف التي تحقّقها عملية تعليم الجزئيات: تعديل السلوك[3]، حيث يهدف المربي إلى تصحيح سلوكيات غير صحيحة سواء أكانت أقوالاً أم أفعالاً تصدر من تلاميذه، وقد تكون أحيانا تطبيقات لجزئيات دينية ولكنها على غير بصيرة، وهذا من المنهج النبوي التعليمي في مجال التديّن بالجزئيات، كما صحح سلوك من كان يداوم

(١) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، ح رقم (٥٠٦١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المراد بمصطلح تعديل السلوك: عملية واعية تؤدّي إلى إحدث تغيرات في السلوك الإنساني، وتنمّي مظاهر السلوك الإيجابي، وتقضي على مظاهر السلوك السلبي بما يتفق مع أسس العقيدة وحاجات النفس. تعديل السلوك الإنساني في التربية الإسلامية، ص٧٥.

على قيام الليل وصيام النهار[١]، وفي تسوية الصفوف[٢]، والمدح في الوجه[٣] وتمني الموت[٤]، وغيرها كثير. وعليه فينبغي أن يراعي المربي هذا الهدف في تعليمه وتربيته لمن هم تحت يديه في سبيل تعديل سلوكهم وبناء السلوك السّوي.

وتخضع عملية تعليم الجزئيات الدينية والتربية عليها – كغيرها من مجالات الدين- في الخطاب النبوي لمنظومة من الدوافع التي تعمل على بعث التلميذ لتحقيق أهداف العملية التعليمية[٥]، كما وتدفع المعلّم والمربي إلى القيام بتعليمها، ومنها دافع الأجر، ودافع إحياء الدين في الحياة، ودافع تحصيل بركات وثمرات الالتزام بالجزئيات الدينية، ودافع تكميل الذات وبناء الشخصية وتحسين الأعمال ودافع التنافس في تحصيل الفضائل وغيرها من الدوافع التي تشكل محركات عملية التعلّم والتعليم، ومن هنا، فإنه يجب على المربي الوعي بأهمية الدوافع في عملية التديّن بالجزئيات، و" أنْ يعرف كيف يثير دافعية تلاميذه للتعلم وللقيام بالنشاط الذي يحقق هذا التعلم، وكيف يثير اهتمامهم وانتباههم لموضوع التعلم"[٦]. ولهذا يسهم بشكل فعّال في نجاح العملية التعليمية المتعلقة بموضوع التديّن بالجزئيات الدينية خاصّة وأن المنهجية الإسلامية غنية بجملة كبيرة من الدوافع العاجلة أو الآجلة التي من شأنها تيسير عملية التديّن وتشجيع الإقبال عليها والاستمرار بها.

رابعاً: تنمية مهارات التواصل الاجتماعي والاتصال الإنساني:

من طبيعة الخطاب الإسلامي عموماً، أنّه يقدّم نمطاً خطابياً يشعر المخاطبين به بأنهم كيان واحد، وأن أرضاً مشتركة كبيرة تجمع بينهم، وقد حشد المنهج الإسلامي لأجل

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (١١٠٢).

(٢) المصدر السابق، ح رقم (٦٩٠).

(٣) المصدر السابق، كتاب الشهادات، ح رقم (٢٥١٩).

(٤) المصدر السابق، كتاب التمنيّ، ح رقم (٦٨٠٨).

(٥) للتوسع حول هذا الموضوع، راجع: (الدوافع وأثرها في التربية الإسلامية)، ص ١٣٥- ٢٢٣.

(٦) علم النفس التربوي، ص١١١- ١١٢.

ذلك موجّهات هائلة في عموم أوامره ونواهيه وقواعده وأساليبه ووسائله ومقاصده، ومن ذلك قطاع "الجزئيات الدينية"، حيث انطوت على جملة من التوجيهات التي تبني التواصل الاجتماعي والاتصال الإنساني وتنمية، في تكامل وتناسق مع كليات الدّين. ولذلك يكشف التحليل لأنماط الجزئيات الدينية المشروعة عن مراعاتها لمقصد "التديّن المجتمعي" وتضمنها لحلقات مهمّة وأدوات فعّالة تسهم في تحقيقه؛ كما في إشاعة تحيّة السلام بين أفراد المجتمع وتوسع دائرتها، حيث يقول النبيﷺ: "وتقرأ السّلام على مَنْ عرفت ومَن لم تعرف"[1]، وكما في تقديم المساعدة للمسلم والسعي في حاجته وتفريج كربته، وكما في التجاوز والتيسير على المعسرين في سداد ديونهم، وفي آداب الاستئذان والمشاركة في الأفراح، وتشميت العاطس، والدعاء للمريض أثناء زيارته، والحرص على المظهر الحسن، والمصافحة بين الناس، فعن قتادة قال لأنس رضي الله عنه: "أكانت المصافحة في أصحاب النبيﷺ، قال: نعم" [2]. وكما في هذا النموذج من الاتصال الإنساني، حيث يقول النبيﷺ :(يسلّم الصغير على الكبير، والمارّ على القاعد، والقليل على الكثير)[3]، وفي الحرص على التواصل بين المتجاورين بما يحفظ الودّ وينميّ العلاقة، حيث يقول النبي ﷺ :(إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك)[4]، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: (إلى أقربهما منك باباً)[5] وقد جعل الماوردي البرّ سبباً رئيساً في تحقيق الألفة والمودّة بين الناس[6]، وكذلك في الحرص على تحقيق التآلف أثناء ممارسة

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ح رقم(١٢).

(٢) المصدر السابق، كتاب الاستئذان، ح رقم (٥٩٠٨).

(٣) المصدر السابق، ح رقم (٥٨٧٧).

(٤) صحيح مسلم، باب الوصية بالجار، ح رقم (٦٨٥٥).

(٥) المصدر السابق، كتاب الهبة، ح رقم (٢٤٥٥).

(٦) أدب الدنيا والدين، ص٤٥- ٤٦ .

التديّن، حيث يقول النبيﷺ: "لتسوّن صفوفكم، أو ليخالفنّ الله بين وجوهكم"[1]. والأمثلة كثيرة، وإنّما المقصود التدليل على الفكرة من الخطاب النبوي الاجتماعي، والارتقاء بعملية الاتصال الإنساني.

هذه الجزئيات الدينية المشروعة وغيرها كثير، يؤدّي التديّن بها ومراعاتها إلى تقوية التواصل الاجتماعي، والارتقاء بعملية الاتصال الإنساني؛ والذي منه الاتصال اللغوي، وهو يتخذ شكلان: الاتصال اللفظي(منطوق ومكتوب)، والاتصال غير اللفظي (لغة الإشارات وأعضاء الجسم)[2]، ويجد الباحث في تحليله للجزئيات الدينية أن الخطاب النبوي قد اعتبر هذين الشكلين من الاتصال الإنساني، وذلك كما في تركيزه على أهمية الكلمة الطيبة، وهو نوع مهم في الاتصال الإنساني اللفظي، حيث يقول النبيﷺ (والكلمة الطّيبة صدقة)[3]، وفي تركيزه كذلك على التبسم، وهو نوع مهم أيضا في الاتصال الإنساني غير اللفظي، حيث يقول النبيﷺ :(تبسمك في وجه أخيك صدقة)[4]، ويقول جرير رضي الله عنه: " ولا رآني النبي صلى الله عليه وسلم إلا ابتسم في وجهي"[5]، وهذه نماذج لتأكيد أهمية التديّن بالجزئيات ودوره الاجتماعي، والأمثلة كثيرة في السنة النبوية[6].

والحرص على العمل بهذه الجزئيات وتفعيلها يثمر تواصلاً اجتماعياً واتصالاً إنسانياً يحفظ أواصر العلاقات في المجتمع ويمنعها من التحلّل والذوبان، ويبقي على هيبة الشخصية الإسلامية ويعزز من مظاهر تدينها، ويقيها من المعاناة النفسية والأسرية التي

(١) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، ح رقم (٦٨٥).

(٢) راجع في ذلك: الاتصال الإنساني، ص١٧- ٤٣.

(٣) صحيح البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد، ح رقم (٢٧٣٤).

(٤) سنن الترمذي، باب صنائع المعروف، ح رقم (٢٠٨٣)

(٥) صحيح البخاري، كتاب الأدب، ح رقم (٥٧٣٩).

(٦) للتوسع والوقوف على نماذج وتطبيقات في ذلك، راجع: (دور التربية الإسلامية في بناء العلاقات الاجتماعية في ضوء السنة النبوية) ، ص٨- ٩٦، ١٤٤- ١٩٠.

قد تعترضها وتضربها بقسوة في حالة فشل التواصل وبناء العلاقات الإيجابية مع الآخر واحترام الذات. ولذلك لا بدّ أن تعمل المناهج التربوية على تضمينها في محتوى المنهاج وأن تكون من أهدافها المهارية والقيمية الأساسية، " وبما أنّ من مقتضيات مادة التربية الإسلامية، التي يتعلمها الطالب في المدرسة تؤكد أهمية كثير من القيم والآداب العظيمة، فإنّ من مقتضياتها تطبيق مهارات العلاقات الاجتماعية، والتعوّد على ذلك، ذلك أنّها تتضمّن موضوعات مهمّة تؤثر في تنمية العلاقات الاجتماعية"[١]. ولذلك فإنّ حرص المعلّم والمربّي على تعليم الجزئيات الدينية ذات الصلة بالعمل الجماعي والاتصال الإنساني وتربية المتعلمين عليها هو من وعيه الإسلامي بأهميتها وأثرها في بناء شخصية الطالب الإيجابية.

خامساً: تعزيز القيم التربوية:

القيم في المنظور الإسلامي: " مجموعة من المثل العليا والغايات والمعتقدات والتشريعات والوسائل والضوابط والمعايير لسلوك الفرد والجماعة، مصدرها الله عز وجل. وهذه القيم هي التي تحدّد علاقة الإنسان وتوجهه إجمالاً وتفصيلاً مع الله تعالى ومع نفسه، ومع البشر ومع الكون"[٢]. وللقيم في الإسلام أهميتها، فهي ترسم للإنسان الطريق الصحيح للهداية، وتساعد في بناء المجتمع وتعمل على تكوين المسلم وإعداده لحمل الرسالة[٣]، وهي تشكل ضرورة للعمل التربوي، لأن " فقدان التربية للقيم التي تبنى عليها الشخصية يفقدها روحها، بل إنّ الأهداف التربوية والغايات الإستراتيجية ما لم تشتق من قيم صحيحة سليمة تراعي العلاقات الإنسانية في أبعادها المختلفة، فإنها تفقد أهميتها، فالقيم هي الأساس السليم لبناء تربوي متميز"[٤].

---

(١) مهارات التربية الإسلامية، ص ١٧٥.

(٢) المنظومة القيمية الإسلامية، ص ٣٢٢٣.

(٣) المبادئ والقيم في التربية الإسلامية، ص٥٠- ٥٢.

(٤) القيم والتربية الإسلامية، ص١١.

وبنظرةٍ تحليلية لميادين التديّن بالجزئيات وبرؤية كلّية لأطرها ومحاورها وبقراءة مفصلة لمضمونها، تنكشف لنا مجموعة من القيم الإسلامية عموما والتربوية خصوصاً يوحي بها التديّن بالجزئيات، منها[1]: قيم إيمانية، كالاستعاذة بالله تعالى، والاستثناء بمشيئة الله، والتبرك باسمه والابتداء به، ودعاء الله والتفويض إليه، وسؤاله واللجوء إليه، والطمأنينة بذكره، وتحصيل محبته ورضوانه وولايته، ومنها قيم تعبّدية، كالمحافظة على الرواتب وأذكار الصباح والمساء، والطاعة والاتباع والاقتداء، ومنها قيم علمية، كالسؤال والاستفسار، وحضور مجالس العلم، وآداب التعلّم والتعليم، ومنها قيم أسرية واجتماعية، كاحترام الذات والحنو على الطفل، وتقدير الكبير والرحمة بالصغير، والوقاية في مرحلة الطفولة، وإطعام الطعام، والإحسان إلى الجار، وردّ السلام، وإنظار المعسر، والتيامن في الطيبات، والمشاركة والتفاعل مع الآخرين ومواساتهم، ومنها قيم إنسانية، كالإحسان إلى الحيوان، وعدم إيذاء الدواب، ومعاقبة المؤذي منها على قدر الحاجة، وقيم جمالية، كالنظافة الجسدية، وخصال الفطرة، والغسل، وتمشيط الشعر، وإزالة الأذى من الطرقات، والتطيّب. يقول أنس رضي الله عنه: " ولا شممت مسكة ولا عبيرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله ﷺ[2]؛ ومنها قيمة تعظيم السنّة والمداومة على العمل، وإتقان السلوك وإن كان صغيراً، والدعوة إلى الهدي النّبوي، وتعزيز العمل الإيجابي، والتنافس في فضائل الأعمال. وغيرها من القيم الإيجابية التي يتضمنها التديّن بالجزئيات المشروعة، وهذا أمر من شأنه أنْ يصحّح النظرة إلى التديّن بالجزئيات ويضعها في إطارها الإسلامي الواسع ويحدد امتداداتها القيمية وأثرها المسلكي والتربوي، وبُعدها المقاصدي.

ويجد الباحث أنه من المفيد وتأكيداً لأفكار البحث المحوريّة، وتطبيقاً لرؤيته المنهجية

(١) اكتفى الباحث بذكر بعض القيم التي يمكن أخذها من نصوص التدّين بالجزئيات في السنة النبوية.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، ح رقم(١٨٧٢).

والتربوية، أن يورد هذين الحديثين، اللذيْن يتضمنان موقفين من مواقف التديّن بالجزئيات ومع أنبياء الله عليهم السلام، وكيف كان حضور الموقف الإلهي فيهما، أما الحديث الأول، فيرويه أبو هريرة رضي الله عنه: " أن نبي الله سليمان عليه السلام كان له ستون امرأة، فقال: لأطوفنّ على نسائي فلتحملنّ كل امرأة، ولتلدن فارساً يقاتل في سبيل الله، فطاف على نسائه، فما ولدت منهنّ إلا امرأة، ولدت شقّ غلام". قال نبي الله ﷺ :(لو كان سليمان استثنى لحملت كل امرأة منهنّ، فولدت فارساً يقاتل في سبيل الله)[1]، والحديث الثاني، كذلك يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قرصت نملة نبيّاً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح)[2]، إنه إطار العبودية والتوحيد، إنها قيم الشرع ومقاصده، التي تعطي أبعاداً خاصّة لأمور التديّن الجزئية فترتقي بها إلى مصاف النظرة القيمية والمبدئية والغائية سلوكاً إيجابياً كانت أم سلوكاً سلبياً في سبيل تحقيق التربية الربانية للنفس الإنسانية المؤمنة، فتستشعر أمام كل فعل أو قول "جزئي" الإرادة الإلهية والمنهجية النبوية والغاية التعبّدية.

* * *

(١) المصدر السابق ، كتاب التوحيد، ح رقم (٧٠٣١).

(٢) المصدر السابق، كتاب الجهاد ، ح رقم (٢٨٥٦).

النتائج والتوصيات:

بعد هذه الدراسة المنهجية لموضوع التدين بالجزئيات والرؤية الدعوية والتطبيقية لأبعاده، يمكن للباحث أن يخلص إلى مجموعة من النتائج والتوصيات على النحو الآتي:

أولاً: النتائج:

- تتجاوز ميادين التديّن بالجزئيات ميدان الشعائرالتعبّدية لتشمل: ميدان تزكية النفس والعلم، والاتصال الإنساني، والتعاملات المادية والأخلاقية وباطن الإنسان وظاهره وغيرها.
- تتحدد مستويات التديّن بالجزئيات بالمستوى المعرفي والتطبيقي والدعوي والتعليمي.
- تظهر الدراسة التحليلية مجموعة من أطر التديّن بالجزئيات وموجّهاته، منها: كونها مطلباً إلهياً وهدياً نبوياً، ونسقيتها، وهويتها الحضارية، وإخلاص القصد والأداء المتقن ومراعاة الفروق الفردية وغيرها مما يسهم في تحقيق التديّن السليم.
- تعمل دوافع التديّن بالجزئيات مثل: تحصيل الأجور والمنازل وتحقيق الاتباع ومقاصده مثل: المقصد العملي والتعبد والقربى، على تفعيل عملية التديّن بالجزئيات وإظهار مكانتها، ودواعي الاهتمام به.
- ترتسم اتجاهات التديّن بالجزئيات في الخطاب الدعوي المعاصر بأربعةٍ هي: اتجاه الإهمال والترك، واتجاه التهوين والتسطيح، واتجاه الإفراط والإغراق واتجاه التوازن والاعتدال.
- تشترك مجموعة من العوامل التي كان لها الأثر السلبي في عملية التديّن بالجزئيات منها: النظر الفقهي الصرف إلى موضوع الجزئيات، والظاهرة

الفرقية والغزو العلماني وسوء تقدير الأولويات والجفاف في أسلوب الدعوة والسلبية في الممارسات والمبالغة النقدية والشّخصنة الفكرية والسلوكية .

- تعمل منظومة من القواعد في إنجاح عملية التديّن بالجزئيات: دعوةً وتعليماً. ومن هذه القواعد: الدعوة إلى التدين بالجزئيات دعوة إلى استكمال الإيمان والترغيب أساسها والأخذ بمنهجية التعزيز الإيجابي وتجاوز الخطاب الجدلي إلى المطلب التطبيقي واعتبار الفرق بين التديّن الفردي والموقف الدعوي وبين موقف العلماء وحظّ العوّام واعتبارالهدي النبوي لا الرأي الشخصي وتقدير الأولويات ودرء التعارض بين التديّن بالجزئيات والكليات.

ينطوي التديّن بالجزئيات على مضامين تربوية وأبعاد قيمية مهمّة، مثل: تزكية النفس والبناء الصحي والنفسي وتدعيم العملية التعليمية وتنمية مهارات التواصل الاجتماعي والاتصال الإنساني.

ثانيا: التوصيات:

يوصي الباحث بعمل دراسات تحليلية تتناول محاور عدّة، وبالتفصيل في موضوع التديّن بالجزئيات: منها: التديّن بالجزئيات في العهد المدني، فقه الواقع والتديّن بالجزئيات، إشكالية العلاقة بين الكليات والجزئيات في الخطاب الدعوي المعاصر. تحليل نسقي لموقع الجزئيات الدينية في بنية الخطاب الشرعي.

* * *

فهرس المصادروالمراجـــع[1]:

- **القرآن الكريم** .
- الآلوسي، **روح المعاني**، (د.ط) .
- الأسمر، أحمد رجب، **النبي المربي**، دار الفرقان، ط١، عمان، ٢٠٠١م .
- ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، جمع : محمد بن قاسم (د.ط) .
- ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، (د.ط).
- ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ابن رجب الحنبلي، **جامع العلوم والحكم**، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، دار الخير، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- ابن القيّم، **إعلام الموقعين**، دار الفكر، بيروت، ط١٩٧٧، ٢م.
- أبو عرقوب، إبراهيم، **الاتصال الإنساني**، دار مجدلاوي، عمان، ط١، ١٩٩٣م.
- أبو العينين، علي، **القيم الإسلامية والتربية**، مكتبة الحلبي، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م.
- أحمد، بن حنبل، **المسند**، (د.ط).
- البخاري، **الصحيح**، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- الترمذي، **السنن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- التل، شادية، **علم النفس التربوي في الإسلام**، دار النفائس، عمان، ط١، ٢٠٠٥م.
- الحوالي، سفر، **العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي**، (د.ط) .
- الخطيب، البغدادي، **الجامع لأخلاق الراوي والسامع**، (د.ط).
- خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، (د.ط).
- خيّاط، محمد جميل، **المبادئ والقيم في التربية الإسلامية**، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩٦ م.
- الدّارمي، **السنن**(د.ط).
- الدويش، محمد، **تطبيق السنّة بين الغلو والجفاء**، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ٣٦.

(١) الرمز: (د.ط) يشير الى عدم توفر المعلومات عن طبعة المرجع والمعلومات المتعلقة بها .

- رضا، صالح أحمد، **الهدي النبوي في تقدير الفروق الفردية**، شؤون اجتماعية، الشارقة، العدد ٧٨، ٢٠٠٢م.
- الشافعي، **الرسالة**، المكتبة العلمية، بيروت، تحقيق: أحمد شاكر(د.ط).
- الشاطبي، **الموافقات**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط).
- الشاطبي، **الاعتصام**، (د.ط)
- الشريفين، عماد، **تعديل السلوك الإنساني في التربية الإسلامية**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- الشيباني، عمر التومي، **علم النفس التربوي**، جامعة الفاتح، ليبيا.
- الصاوي، صلاح، **الثوابت والمتغيّرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر**، المنتدى الإسلامي، لندن، ط١، ١٩٩٤م.
- عاشور، مجدي محمد، **الثابت والمتغيّر في فكر الإمام الشاطبي**، جامعة دبي، ط١، ٢٠٠٢م.
- عبد الحليم، عرفان، **دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية**، دار البشير، ط٢، ١٩٩٧م.
- العثماني، سعد الدين، **فقه مراتب الأعمال**، البيان، المنتدى الإسلامي، لندن، العدد ٩٧.
- العقل، ناصر، **الأهواء والفرق والبدع عبر التاريخ المسلمين**، دار الوطن، الرياض، ١٤١٥هـ
- علاونة، علا محمود، **المضامين التربوية في الدعاء**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- العودة، سلمان، **من أخلاق الداعية** (د.ط).
- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت.
- فلاته، أحمد محمد، **آداب المتعلّم**، دار المجتمع، ط١، ١٩٩٣م.
- القرضاوي، يوسف، **أولويات الحركة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
- قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م.
- قطب، محمد، واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م.
- قطب، محمد، **منهج التربية الإسلامية**، دار الشروق، القاهرة، ط١٥، ٢٠٠١م.
- القيسي، مروان، **المنظومة القيمية الإسلامية كما تحددت في القرآن الكريم والسنة الشريفة**، دراسات (العلوم الإنسانية)، الجامعة الأردنية، المجلد ٢٢، العدد٦، ١٩٩٥م.

- المالكي، عبد الرحمن، **مهارات التربية الإسلامية**، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف، قطر، العدد١٠٦، ١٤٢٦هـ.
- الماوردي، **أدب الدنيا والدين**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٤م.
- محمود، علي عبد الحليم، **التراجع الحضاري**، دار الوفاء، ط١٩٩٤، ١م.
- مسلم، **الصحيح**، دار ابن الهيثم، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ملحم، سامي، **سيكولوجية التعلم والتعليم**، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠١م.
- المومني، محمد علي، **الدوافع وأثرها في التربية الإسلامية**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.
- النووي، **الأذكار**، دار الفكر، (د.ط).
- النووي، **شرح صحيح مسلم**، دار الكتب العلمية (د.ط).
- الهاشمي، عبد الحميد، **الفروق الفردية**، دار الشروق، جدّة، ١٤٠٧هـ.
- الهزايمة، لؤي، **دور التربية الإسلامية في بناء العلاقات الاجتماعية في ضوء السنة النبوية**، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٧م.

* * *